المقارنات القرآنية ومقاصدها
(دراسة وتحليل)

حفصة غازي*

Abstract

Qur'ānic Comparisons and Their Purposes
(A Descriptive and Analytical Study)

Hafsa Ghazi*

This article deals with an important aspect of Qur'ānic studies, which is the comparisons made in the Qur'ān and their purposes. The Qur'ān compares between various things. These comparisons are scattered throughout the Qur'ān. For example, we find in the Qur'ān a comparison between guidance and error, between Allah and false idols, between faith and disbelief, between the believer and the unbeliever, between knowledge and ignorance, between Paradise and Hell, etc. These Qur'ānic comparisons have a variety of eloquent methods as well as purposes to pursue. This research highlights these methods and explains these purposes after inferring them from the comparisons made in the verses of the Qur'ān.

Keywords
Qur'ān, comparisons, verses, purposes.

---

* طالبة الدكتوراه، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

* PhD Scholar, Faculty of Usuluddin (Islamic Studies), International Islamic University, Islamabad, Pakistan.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد؛

فإن القرآن كلام الله الخالد، أنزله الله لهداية البشر إلى صراطه المستقيم، وهدفه الأصيل هو صلاح الإنسان في الدنيا وفلاحه في الآخرة، وكل آياته وسوره تدور حول هذا المقصد الأصلي. ولكن هذا لا يعني أن القرآن الكريم يتحدث عن موضوع أو أمر واحد فقط، بل إنه يناقش أمورًا ويتحدث عن موضوعات شتى كلها تخدم هذا الهدف الأساسي. ومن موضوعات القرآن الكريم ومباحثه الرئيسية: العقائد، والأحكام، والأخلاق، وتذكرة الماضين، وغير ذلك.

وقد استخدم القرآن الكريم لمناقشة هذه الموضوعات والمباحث، وإثبات الحقائق وترسيخها في الأذهان أساليب شتى، منها: الأمثال، والأقسام، والحوارات، وسرد قصص السابقين، ونحو ذلك. ومن أساليبه البليغة أيضا إجراء المقارنات بين أمور متعددة بهدف تبيين الأشياء وتوضيحها، لأنه بضدها تبين الأشياء.

فقد قارن القرآن الكريم بين قضايا متعددة وأمور شتى، وهذه المقارنات منثورة في القرآن الكريم كله، فمثلا نجد في القرآن مقارنة بين الهدى والضلال، وبين المعبود الحقيقي والمعبودات الباطلة، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر، وبين العلم والجهل، وبين الجنة والنار، وبين قدرة الله المطلقة ومنتهى عجز ما سواه، وغير ذلك. ولهذه المقارنات القرآنية أساليب متنوعة بليغة، ولها أيضا مقاصد متنوعة تسعى إلى تحقيقها.

هذا البحث الذي هو بعنوان **"المقارنات القرآنية ومقاصدها – دراسة وتحليل"** يسعى إلى بيان هذه المقاصد وتوضيحها بعد استخراجها من المقارنات الواردة في آيات القرآن الكريم وسوره المختلفة.

ولا شك أن لهذا الموضوع أهمية عظمى لكونه يتعلق بالتفسير وعلوم القرآن الكريم على

السواء، وله أهمية أيضا باعتبار أنه يبرز جانبًا من جوانب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وهو موضوع لم يُفرَد فيه – حسب علمي واطلاعي- مؤلَّف خاص، ولم يُدْرَس دراسة مستقلة. فلعل دراسته تفتح المجال لمزيد من الدراسات الجديدة، ويظهر بين يدي القراء منهج جديد لدراسة آيات القرآن الكريم التي تقارن بين أمور متعددة.

إشكالية البحث

يدور البحث حول التساؤلات التالية:

هل استخدم القرآن المقارنة في تقرير بعض القضايا؟

لم قارن القرآن الكريم بين أمور متنوعة وقضايا شتى؟ وما مقاصد هذه المقارنات؟

منهج البحث وأهدافه

منهج هذا البحث هو المنهج الاستقرائي في جمع آيات المقارنة من القرآن الكريم، والمنهج التحليلي في شرح هذه الآيات وتفسيرها، واستخراج أغراض المقارنات ومقاصدها منها.

ويتجه البحث إلى دراسة مجموعة من آيات المقارنة في القرآن الكريم، وذلك بهدف التعرف على أساليبها، والكشف عن الأغراض والمقاصد الكامنة وراءها، وتقديمها بين يدي القراء والباحثين مرتبة حسب موضوعاتها، وذلك لإبراز جانب من جوانب بلاغة القرآن الكريم.

خطة البحث

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة كالآتي:

المقدمة.

التمهيد: نبذة عن المقارنات في القرآن الكريم، وأساليبها

المبحث الأول: المقارنة القرآنية المتعلقة بالمولى عز وجل ومقاصدها

المبحث الثاني: المقارنة القرآنية المتعلقة بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب ومقاصدها

المبحث الثالث: المقارنات القرآنية ومقاصدها العامة

الخاتمة: وتشمل أهم نتائج البحث.

التمهيد

أولا: المقارنة، أهميتها وورودها في القرآن الكريم

أصل المقارنة في اللغة القاف والراء والنون، ومعنى قَرَنَ الشيءَ بالشيءِ وقَرَنَهُ إليه يقرِنُهُ قَرْنًا: شَدَّهُ إليه، ووصله به. ويقال: اقْتَرَنَ الشيئان وتَقَارَنا، أي: اجتمعا. وجاءوا قُرانَى، أي: مُقْتَرِنين. وقَارَنَ الشيءُ الشيءَ مُقَارَنَةً وقِرَانًا: اقْتَرَنَ به وصَاحَبَه. والمُقَارَنَةُ كالمُصاحَبة. ويُطلق القَرِينُ على: الأسير، والمصاحب، أو صاحبك الذي يُقَارِنك، وهو قَرِينُك وقَرَنُك، ويجمع على قُرَنَاء[1].

فمعنى قَارنَه قِرَانا ومُقَارَنة، أي: صار له قرينا. والمُقارنة: التلاقي في زمان أو مكان كالملابسة. والاقْتِرَان كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني[2].

ونستنتج من ذلك أن المقارنة في أصل اللغة تُستخدم بمعنى الجمع بين شيئين أو أشياء ووصلها ببعضها. فالمراد بها الجمع بين الشيء وضده، وذكرهما معا، بهدف توضيح الفروق بينهما، والتوصل إلى نتيجة معينة.

أهمية المقارنة

إن للمقارنة أهمية كبيرة، ولأهميتها هذه تُستخدم في كل العلوم بهدف الوصول إلى نتائج

١- يُنظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين** (دار ومكتبة الهلال) ج ٥ ص١٤١ – ١٤٢. أبو نصر الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** (بيروت: دار العلم للملايين،١٤٠٧هـ) ج ٦ ص٢١٨١ – ٢١٨٢. ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم** (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤٢١هـ) ج ٦ ص ٣٦٤ – ٣٦٥. ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر،١٤١٤هـ) ج ١٣ ص ٣٣٥ – ٣٣٧. الفيروز آبادي، **القاموس المحيط** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦هـ) ص١٢٢٤.

٢- يُنظر: الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن** (دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ) ص ٦٦٧. نشوان اليمني، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم** (بيروت: دار الفكر،١٤٢٠هـ) ج ٨ ص ٥٤٦٥. القاضي عبد النبي نكري، **جامع العلوم في اصطلاحات الفنون** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ) ج ٣ ص ٢١٦.

معينة. فإلى جانب ورودها في القرآن الكريم هي واردة في السنة النبوية أيضا، إذ استُخدمت في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة. فمثلا: قارن الرسول ﷺ بين الصديق الصالح والصديق السوء بأسلوب بليغ، مشبِّها الصديق الصالح بصاحب المسك والصديق السوء بنافخ الكير. قال ﷺ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ[٣]، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[٤]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[٥]. فذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث الفرق بين الصاحب الصالح والصاحب الفاجر بعقد مقارنة بينهما، ووضح آثارهما على المصاحب لهما، باستخدام أسلوب التشبيه.

ومثل هذه المقارنات البليغة موجودة في الأحاديث النبوية بكثرة، منثورة في كتب السنة المطهرة، على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

وليس فقط في الأحاديث النبوية، بل إن المقارنة مستخدمة في كثير من العلوم الأخرى أيضا. ففي علم الكلام تُعقد المقارنة بين آراء الفرق الكلامية المختلفة، بهدف بيان وجه الصواب في المسائل المختلفة. كما أنها مستخدمة في الفقه بين المسالك الفقهية المختلفة وأدلتها القائمة عليها، بغرض الوصول إلى الرأي الراجح بين الآراء الفقهية المختلفة الواردة في المسألة الواحدة.

وأيضا فإن من العلوم التي تجد فيها المقارنة مجالا واسعا وأهمية عظمى علم الأديان، إذ إن علم مقارنة الأديان علم كامل مستقل في حد ذاته، يهدف إلى كشف مواضع الشبه والاختلاف بين الأديان والنحل المختلفة، للوصول إلى الدين الحق، وتيسير عملية الدعوة إلى هذا الدين.

٣- الكير: كير الحداد، وهو المبني من الطين. وقيل: هو الزِّقُّ الذي يُنفَخ به النار.
ابن الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر** (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ) ج ٤ ص ٢١٧.

٤- الإحذاء بمعنى الإعطاء، والحذية العطية. فيحذيك بمعنى يعطيك.
يُنظر: الزمخشري، **الفائق في غريب الحديث والأثر** (بيروت: دار المعرفة) ج ١ ص ٤٤٣.

٥- أخرجه محمد بن إسماعيل في **صحيح البخاري**، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم الحديث ٥٥٣٤ (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ) ص٩٨٤.

ولا يستفاد من المقارنة في العلوم الشرعية فحسب، بل هي مفيدة في العلوم التجريبية أيضا، حيث يُستفاد منها في توضيح الفروق بين الجواهر والمواد المختلفة وفهم حقيقتها ومجالات استخدامها. وبالإضافة إلى كل ذلك يُعتبر المنهج المقارن للدراسات العلمية مشهورا ومعروفا، وهو منهج "يقوم على معرفة كيفية ولماذا تحدث الظواهر، من خلال مقارنتها مع بعضها البعض، من حيث أوجه الشبه والاختلاف بينها؛ وذلك من أجل التعرف على العوامل المسببة للحادثة أو الظاهرة المعينة، والظروف المصاحبة لذلك، والكشف عن الروابط والعلاقات، أو أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر في البيئات المختلفة"[٦].

لا شك أن هذا الاستخدام الكبير للمقارنة في كافة العلوم يدل على أهميتها البالغة، وعلى أن لها فوائد كثيرة. ومن أهم هذه الفوائد:

١- تبيين الأشياء وتوضيحها، لأنه بضدها تتبين الأشياء.

٢- توضيح الفروق بين طرفي المقارنة.

٣- إيقاظ العقل ودعوته إلى التفكر والتدبر في الأمور حوله، وبالتالي الوصول إلى الصواب.

٤- إدراك الحقائق عن طريق وضع طرفي المقارنة فيما يشبه كَفَّة الميزان، وبذلك يتبين الحق، وينكشف أمام الباحث أو القارئ.

٥- معرفة مواطن الشبه والخلاف بين طرفي المقارنة.

٦- ترسيخ المعلومات في الأذهان.

ورود المقارنات في القرآن الكريم

إن المقارنات موجودة في القرآن الكريم بكثرة، منثورة في ثنايا سوره وآياته المختلفة، وهي وردت في القرآن لأهداف ومقاصد كثيرة. وقد أولاها القرآن الكريم أهمية كبرى، ويدل على ذلك

٦- ربحي مصطفى عليان، **البحث العلمي أسسه مناهجه أساليبه وإجراءاته** (الأردن: طبعة بيت الأفكار الدولية) ص٦٤.

اهتمامه بها واستخدامه لها في إثبات الحقائق المتنوعة التي يهدف إلى ترسيخها في أذهان البشر. فوضع الشيء وضده معًا - كما قال الدكتور محمود غازي[٧] رحمه الله - لا يوضح الكلام فحسب، بل يرسخه أيضًا في ذهن المخاطَب.

وبإلقاء نظرة على القرآن الكريم تظهر أمثلة كثيرة لأسلوب المقارنة فيه، حيث قارن القرآن بين النور والظلمات، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر، وغير ذلك من الأمور. وهذا لا يضيف إلى الكلام حسنه فقط، بل يوضح الموضوع أمام القارئ توضيحا تاما[٨].

لقد قارن القرآن الكريم بين أمور كثيرة، من أهمها: الجنة والنار ترغيبا في الجنة وترهيبا من النار. فمن عادة القرآن الكريم أنه يقرن ذكر الجنة بالنار والترغيب بالترهيب. قال الإمام الشاطبي[٩] رحمه الله: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفا؛ فهو راجع إلى الترجية والتخويف"[١٠].

٧- هو الأستاذ الدكتور محمود أحمد غازي بن محمد أحمد الفاروقي، من العلماء المعاصرين، ولد عام ١٩٥٠م في الهند، ثم هاجر مع والديه إلى باكستان واستقر فيها. اشتغل بالعلوم الشرعية منذ الصغر، كانت له خبرة بالعلوم الشرعية والعربية وغيرها. توفي عام ٢٠١٠م. من كتبه: **المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز، محاضرات قرآني، تاريخ الحركة المجددية**، وغيرها.

٨- ينظر: محمود غازي، **محاضرات قرآني** (لاهور: الفيصل ناشران وتاجران، ٢٠٠٩م) ص٣٤١.

٩ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي. من العلماء المحققين وأكابر الأئمة الثقات، إمام في كثير من العلوم والفنون. توفي عام ٧٩٠هـ. من كتبه: **الموافقات في أصول الأحكام، الاعتصام، عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق**، وغيرها.

ينظر: أبو العباس أحمد بابا السوداني، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، (طرابلس: دار الكاتب، ٢٠٠٠م) ص٤٨. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين** (بيروت: مكتبة المثنى) ج ١ ص١١٨.

١٠ - الشاطبي، **الموافقات** (دار ابن عفان، ١٤١٧هـ) ج ٤ ص١٦٧.

وأيضا قارن القرآن الكريم في كثير من المواضع بين المؤمنين والكفار، وأعمالهم وجزاء كلا الفريقين يوم القيامة. قال الدكتور وهبة الزحيلي[١١]: "قارن الله – كما هو شأن القرآن – فعل الكفار الآثمين بفعل المؤمنين الصالحين، ليظهر الفرق واضحا بين الفريقين، فيكون ذلك أدعى إلى امتناع الجاحد وامتثال المؤمن الصادق"[١٢].

وقد وردت في القرآن الكريم أيضا مقارنات متعددة بين الإله الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد والآلهة الباطلة التي يعبدها الناس من دون الله. وهذه المقارنات متنوعة ومختلفة، فتارة يأتي ذكر القدرة الإلهية المطلقة وبمقابله يرد ذكر العجز الكامل للآلهة الباطلة، وتارة يتمّ اختيار صفة أخرى للمقارنة وبها يتمّ إثبات حق الله تعالى وحده بالعبادة.

وكذلك جاءت في القرآن الكريم مقارنة بين الدنيا ومتاعها الزائل والآخرة ومتاعها الباقي، وبين الإنفاق في سبيل الله والربا، وبين فِرَق أهل الكتاب المختلفة، وغيرها من الأمور الكثيرة.

ثانيا: أساليب المقارنات في القرآن الكريم

إن المقارنات التي وردت في القرآن الكريم يمكن تقسيمها إلى مقارنات صريحة، ومقارنات غير صريحة، وتندرج تحت كل من هذين القسمين أساليب متعددة. وبيان ذلك فيما يلي:

أولا: المقارنات الصريحة

وهي التي ورد فيها ذكر للطرفين مع وجود ما يدل على عقد مقارنة بينهما، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا

١١- هو الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، عالم سوري من العلماء المعاصرين، ألف في التفسير والفقه. توفي عام ٢٠١٦م. من كتبه: **الفقه الإسلامي وأدلته**، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، **أصول الفقه الإسلامي**، وغيرها.
ينظر: عبد الغفور مصطفى جعفر، **التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد** (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٧م) ص٧٧٨ – ٧٧٩.

١٢- وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** (دمشق: دار الفكر، ١٤١٨هـ) ج ٣ص٨٨.

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١٣] فقد قارن الله تعالى في هذه الآية بين المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان فصاروا به أحياء بعد أن كانوا كفارًا مثل الأموات، وبين الكفار الذين ما زالوا كالأموات تائهين في ظلمات الكفر والضلال. ووجود كاف التشبيه، وقبله حرف الاستفهام في أول الآية، يدلّان على كونها مقارنة صريحة.

وللمقارنات الصريحة في القرآن الحكيم أساليب متنوعة وبليغة، ومن أهم هذه الأساليب:

أولاً: المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام

فوردت في القرآن الكريم مقارنات متنوعة استُخدم فيها أسلوب الاستفهام، والاستفهامات الواردة في مجال مقارنات القرآن أنواع، هي:

الاستفهام الإنكاري: مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١٤] فقارنت هذه الآية بين من حاول نيل رضا الله بطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه وكان مأواه الجنة، ومن نال غضب الله تعالى وسخطه باتباع طريق معصيته وإتيان نواهيه وكان مأواه جهنم وبئس المصير، مستخدمة أسلوب الاستفهام الإنكاري، إذ نفت المساواة بين هذين الاثنين وأنكرت على من يظن أنهما سواء. فشتان ما بينهما في الدنيا والآخرة، ولا يمكن أن يتساويا أبدا في الدنيا ولا في الآخرة.

الاستفهام التوبيخي: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾[١٥] فقارنت الآية الكريمة بين نار جهنم وأصناف العذاب التي يذوقها الداخلون فيها، وبين جنة الخلد التي يدخلها المتقون، ويتمتعون فيها بأنواع وأصناف من النعم والملذات، بتوجيه استفهام لتوبيخ

١٣- سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

١٤- سورة آل عمران، الآية ١٦٢.

١٥- سورة الفرقان، الآيتان ١٥ – ١٦.

الكفرة المعاندين وتوجيه أنظارهم نحو خير الطرفين.

طرح سؤال مع الإجابة عليه: وذلك كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[١٦] فهذه الآية فيها مقارنة بين المؤمن والفاسق، إذ أنكرت على من يسوي بين المؤمن المطيع لله تعالى والفاسق الخارج عن طاعة الله تعالى، بتوجيه استفهام إنكاري، ثم أجابت عن هذا السؤال إجابة صريحة واضحة، مبينة أن المؤمن والفاسق لا يستويان أبدا في نظر الله تعالى. ثم فُصل هذا الجواب، ببيان أن المؤمن العامل للصالحات له جنات المأوى نزلا من عند الله، وأما الفاسق فمأواه النار التي لا يقدر على الخروج منها أبدا مهما حاول ذلك.

ثانياً: المقارنة باستخدام أسلوب ضرب المثل

وفي القرآن الكريم أيضا مقارنات عديدة استُخدم فيها أسلوب ضرب المثل، لتقريب المعنى المراد إلى الأذهان، وترسيخه في العقول. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١٧] وهذه الآية المباركة فيها مقارنة صريحة بين الله تعالى والأصنام، باستخدام أسلوب ضرب المثل. فضرب الله تعالى للأصنام مَثَلَ رجلٍ أخرس لا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو عبء على من يرعاه ويتولى أموره، ولا ينفعه في شيء من المصالح، فإذا أرسله سيده لأداء أمر والقيام بمهمة لن يتمكن من أدائها على الوجه المطلوب ولا يعود بخير أبدا، وضرب الله تعالى لنفسه مَثَلَ رجلٍ سيرته صالحة، ويمشي على صراط مستقيم ويهدي الناس إليه ويأمرهم بالعدل. ولا شك أن هذين لا يستويان أبدا، وكذلك لا مساواة بين الله

١٦- سورة السجدة، الآيات: ١٨ – ٢٠.

١٧- سورة النحل، الآية ٧٦.

وشركائه .

ثالثاً: أسلوب التشبيه والاستعارة

كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[١٨] وهذه الآية الكريمة فيها مقارنة بين الظالمين المفترين الكذب على الله الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، ولم ينفعهم كذبهم وافتراؤهم في الآخرة، وبين المؤمنين الخاشعين لله العاملين الصالحات الفائزين بالجنة في الآخرة. وشبهت الآية الفريق الأول بالأعمى والأصم، والفريق الثاني بالبصير والسميع. ثم وجهت سؤالا إلى القراء والسامعين، وهو: هل هذان يستويان في عقل أحد، ولا شك أن جواب هذا السؤال يكون بالنفي لدى الجميع. ومن الاستعارة قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١٩] فقارنت هذه الآية بين المؤمن والكافر، فشبهت الكافر بمن يمشي مكبا على وجهه، لا يبصر الطريق ولا يعرف أين يتجه، فيسير دون طريق واضح وهدف مقصود. وشبهت المؤمن بمن يمشي سويا على طريق مستقيم، يعرف هدفه واتجاهه، باستخدام استعارة تمثيلية. وسألت: هل الأول أهدى أم الثاني، ولا شك أن الثاني أهدى من الأول.

رابعاً: أسلوب الطباق والمقابلة

وهو أيضا من أساليب المقارنات الصريحة في القرآن الكريم، ومن الأمثلة عليها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢٠] وهنا مقارنة بين الإله الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد القادر على الخلق وبين الآلهة الباطلة العاجزة عن الخلق. فأثارت الآية تساؤلا، وهو: هل الذي يخلق مثل الذي لا يخلق؟! وذلك بإيراد طباق سلب بين "يخلق" و"لا يخلق". ومن البديهي أن القادر المطلق الذي يستطيع أن يخلق ما يشاء لا يتساوى مع الذي لا يستطيع أن يخلق ذرة.

١٨- سورة هود، الآيات: ٢٤.

١٩- سورة الملك، الآية: ٢٢.

٢٠- سورة النحل، الآية: ١٧.

خامساً: أسلوب الإطناب

والإطناب أيضا مستخدم في معرض مقارنات القرآن بين مختلف الأمور، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢١) قارنت الآية بين القاعدين عن الجهاد القادرين عليه من المؤمنين الذين لا عذر لهم في التخلف عنه، وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فقد صرّحت الآية بنفي المساواة بينهما، مستخدمة أسلوب الإطناب في نفي هذه المساواة وبيان فضيلة المجاهدين في سبيل الله. فذكر الله أولا أن المجاهدين والقاعدين لا يستويان، ثم ذكر أنه فضل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم بيّن مرة أخرى أنه تعالى فضلهم على القاعدين، وأعطاهم أجرا عظيما. وفي ذلك إطناب في بيان علو درجات المجاهدين للتأكيد على ذلك.

سادساً: الأسلوب المباشر للمقارنات

وهذا الأسلوب يأتي إما بنفي المساواة بين طرفين صراحة كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢٢) وإما ببيان خيرية أحد الطرفين، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(٢٣) وإما باستخدام اسم التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾(٢٤) ففي الآية مقارنة بين القتل وفتنة المؤمنين عن دينهم، وتصريح بكون الفتنة أعظم جرما عند الله من قتل أحد، باستخدام اسم التفضيل الذي هو أسلوب من أساليب المقارنة المباشرة.

٢١- سورة النساء، الآية: ٩٥.

٢٢- سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

٢٣- سورة الأعلى، الآيتان: ١٦ و ١٧.

٢٤ - سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

ثانيا: المقارنات غير الصريحة

ويقصد بها المقارنات التي ليس فيها ما يدل على عقد مقارنة بين طرفين، وذلك إما بذكر طرفين مع عدم التصريح بالمقارنة بينهما، وإما بذكر طرف وحذف الطرف الآخر لكونه مفهوما من السياق. ولها أيضا أساليب متنوعة، ومنها:

أولاً: استخدام إيجاز الحذف

وذلك بذكر أحد طرفي المقارنة وحذف الآخر، لكونه مفهوما من السياق، بهدف إيقاظ العقول ودعوتها إلى التفكر والتدبر في المحذوف، لإدراك الفرق بين الطرفين. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [٢٥] فقد عقدت مقارنة بين من يدخل النار ويحاول أن يحمي نفسه سوء عذابها بوجهه، وبين من يأمن من العذاب بدخول الجنة. واستخدمت الآية إيجاز الحذف، فذكرت طرفا واحدا، وهو الذي يحاول أن يقي نفسه من العذاب بوجهه، وحذفت الطرف المقابل، وهو الذي يأمن من العذاب في الآخرة.

ثانياً: الربط بين الترغيب والترهيب

وهو كثير في القرآن الكريم، حيث لم يرد في القرآن ترهيب إلا اقترن به ترغيب. قال الجاحظ[٢٦] رحمه الله: "وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف،

٢٥- سورة الزمر، الآية: ٢٤.

٢٦ - هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، من أهل البصرة، ولد عام ١٦٣هـ. كان من أئمة المعتزلة، وكان فصيحا بليغا، عالما من علماء الأدب، ألف في علوم كثيرة، توفي عام ٢٥٥هـ. من كتبه: **الحيوان، البيان والتبيين، البخلاء، مسائل القرآن**، وغيرها.

يُنظر: أبو البركات الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** (الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٥هـ) ص١٤٨ – ١٥١. جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** (بيروت: المكتبة العصرية) ج ٢ ص ٢٢٨. خير الدين الزركلي، **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م) ج ٥ ص ٧٤.

والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس"[٢٧]. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٢٨] فقارنت الآيتان بشكل غير صريح بين الذين يطيعون الله ورسوله والذين يعصون الله ورسوله، مستخدمة أسلوب الربط بين الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية، بذكر جزاء كل منهما في الآخرة. فذكرت أن الطائعين لله ورسوله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، يخلدون فيها إلى الأبد. أما الذين عصوا الله ورسوله فلهم نار جهنم التي يخلدون فيها ويتعرضون للعذاب المهين، بسبب عصيان الله ورسوله واعتداء حدوده. فوعدت الآيتان الطائعين ثوابا جزيلا، بينما توعدت العاصين عذابا مهينا مخزيا.

ثالثاً: اختيار صفة للطرفين

والمراد بذلك اختيار صفة واحدة من الصفات المتعددة التي تفرق بين طرفين، وعقد مقارنة بينهما فيما يتعلق بهذه الصفة فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢٩] فقارن القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة بين الكفار من اليهود والنصارى وبين المؤمنين، مختارا صفة الإيمان بالرسل، إذ قارن بينهما من حيث الإيمان برسل الله تعالى. فذكر أن الكفار (اليهود والنصارى) لا يؤمنون بجميع الرسل على السواء، بل يفرقون بين الله ورسله في الإيمان، كما يفرقون

٢٧- أبو عثمان الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ) ج ١ ص٤٢.

٢٨- سورة النساء، الآيتان: ١٣ – ١٤.

٢٩- سورة النساء، الآيات: ١٥٠ – ١٥٢.

بين الرسل أنفسهم، فيؤمنون ببعضهم ويكفرون بالبعض الآخر، فهم كفار بالجميع في حقيقة الأمر. أما المؤمنون فهم لا يفرقون بين رسل الله تعالى في الإيمان، إذ يؤمنون بهم جميعا دون تفريق، فهم المؤمنون في حقيقة الأمر، ولهم أجرهم عند الله تعالى.

هذه هي أهم أساليب المقارنات الواردة في القرآن الكريم. وكما أن لهذه المقارنات أساليب متنوعة، لها أيضا مقاصد تسعى إلى تحقيقها. وهذه المقاصد أيضا متنوعة وكثيرة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث موضوعات، فمنها ما يتعلق بالمولى عز وجل، ومنها ما يتعلق بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب، ومنها مقاصد متعلقة بموضوعات عامة.

المبحث الأول: المقارنة القرآنية المتعلقة بالمولى عز وجل ومقاصدها

أولاً: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده

إن من أهم المقاصد التي يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقها، بل التي نزل القرآن الكريم من أجلها هو الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وحده دون شريك ولا نظير ولا منازع، ونبذ كل أنواع الشرك الخفي والجلي. فيُعتبر هذا المقصد من أهم مقاصد القرآن الحكيم ومقاصده عموما، ومن أهم مقاصد المقارنات القرآنية خصوصا، إذ تدعو الآيات القرآنية عامةً بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

فقد وردت في القرآن مقارنات كثيرة لأجل الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده الكامل دون لبسه بنوع من أنواع الشرك. فهناك مقارنات بين قدرة الله المطلقة، وعجز كل ما يُعبد من دونه، ومقارنات بين علم الله الواسع الذي لا حدود له، وجهل كل ما سواه من المخلوقات، ومقارنات أخرى متعددة، كلها وردت لأجل تحقيق هذا الغرض الأسمى، وهو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده.

والأمثلة على المقارنات التي تهدف إلى الدعوة إلى الإيمان بالواحد الأحد وعبادته دون شريك ولا ندّ كثيرة منثورة في ثنايا سور القرآن الكريم وأجزائه المتعددة. ومن هذه الأمثلة قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ

أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣٠].

وردت هاتان الآيتان في سياق قصة سيدنا يوسف عليه السلام الذي أُدخل السجن لمجانبته الفاحشة، وإنكاره الدعوة إليها. وفي السجن سأله صاحبان له عن تأويل رؤيا لهما، فدعاهما يوسف عليه السلام قبل تأويل الرؤيا إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، واتباع دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، الدين القيّم الذي يرضاه الله لعباده. وفي معرض دعوتهم إلى الله وجه لهم استفهاما إنكاريا قائلا: هل الأرباب المتفرقون خير أم الله الواحد القاهر فوق عباده؟![٣١].

نظرة تفسيرية

اشتملت الآيتان على دعاء إلى التوحيد على أتم وجه، حيث خاطب سيدنا يوسف عليه السلام صاحبيه بأسلوب فيه تلطف بهما في إرشادهما إلى الحق والهدى، وأبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام الإنكاري، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بإبطال ما فعلاه زمنا، ومضى عليه أسلافهما. فقال لهما سيدنا يوسف عليه السلام: يا ساكني هذا المحل الشاق الضيق، إني ذاكر أمرا فقولوا فيه الحق، وهو: أعبادة أرباب متعددين كثيرين مختلفي الأجناس والطبائع والأشكال والألوان خير وأنفع، أم عبادة الله سبحانه الواحد الغالب الذي لا يحتاج إلى غيره ويقهر بقدرته وإرادته كل شيء؟! ثم بيّن لهما سيدنا يوسف عليه السلام حقيقة آلهتهما، فقال: إن الآلهة التي تعبدونها هي مجرد أسماء فارغة لا وجود لها ولا مطابق لها في الواقع، وقد جعلتموها أنتم وآباؤكم آلهة بمحض الجهل والضلالة، ولم ينزل الله حجة ولا برهانا يدل على صحتها وكونها مستحقة للعبادة. والحقيقة هي أن الحكم والتصرف لله فقط، وهو الذي أمر ألا يعبد الناس إلا إياه، وعبادته

٣٠- سورة يوسف، الآيتان: ٣٩ – ٤٠.

٣١ - راجع: الآيات ٣٦ – ٣٨ من سورة يوسف.

وحده هي الدين المستقيم الثابت الذي دلّت عليه البراهين، والذي يحبه الله ويرضاه للناس جميعا، ولكن الناس لجهلهم لا يعلمون أن هذا هو الدين القيم[٣٢].

وقفة مع المقارنة

قارنت الآيتان مقارنة صريحة بين الله الواحد القهار والأرباب المتفرقين الذين يُعبدون من دون الله، باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري. وقد جرت هذه المقارنة الموجزة البليغة على لسان سيدنا يوسف عليه السلام، فلما رأى أن صاحبيه يستمعان إليه ويريانه من المحسنين استغل الفرصة ليدعوهم إلى الإيمان بالله والتوحيد الكامل. وكذلك ينبغي للدعاة أن يستغلوا الفرص للدعوة إلى دين الله. وفي ذلك إشارة أيضا إلى أهمية المقارنة بين الأمور، لأنها توقظ العقول وتوضح الأشياء بذكر أضدادها لذا استخدمها الأنبياء في مهماتهم الدعوية. فاستخدم سيدنا يوسف عليه السلام استفهاما إنكاريا وسألهم: هل المقهورون المتفرقون من الآلهة خير أم الله الواحد القاهر القادر على كل شيء؟! والجواب بلا شك هو أن الله تعالى خير وأفضل من كل ما سواه؛ وذلك لأن الله هو صاحب القدرة المطلقة التامة، وهو الذي بيده الخلق والأمر، أما ما سواه فهو عاجز لا قدرة له على شيء، ولا يملك شيئا من التصرف في ملك الله عز وجل. وعبادة الله وحده هي التي تعود بالخير والنفع على الإنسان في دينه ودنياه، لذا ينبغي الإيمان بالله وعبادته وحده دون شريك ولا مقابل. والغرض من هذه المقارنة كما يظهر من ألفاظها هو الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، وترك عبادة كل ما يُعبد من دون الله تعالى، والذي لا حقيقة له أمام الله، ولم ينزل الله تعالى دليلا ولا حجة على مشاركته الله في شيء.

---

٣٢ - يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ) ج ٣ص ٢٤٦. الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ) ج ١٨ص ٤٥٧ – ٤٥٩. الألوسي، **روح المعاني** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ) ج ٧ص٧٣، ج٦ ص٤٣٤ – ٤٣٥. الزحيلي، **التفسير الوسيط** (دمشق: دار الفكر، ١٤٢٢هـ) ج٢، ص١١٠٨.

بيان رحمة الله وشفقته بعباده

إن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده بهم، يحبهم ويشفق عليهم ويرعاهم، لذا لم يتركهم بعد خلقهم تائهين ضائعين في الدنيا، بل اقتضت رحمته أن يوفر لهم أسباب العيش في هذه الحياة الدنيوية، وينزل لهم الهداية التي تيسر لهم نيل الغرض الأسمى، وهو رضا الله تعالى وثوابه في الدار الآخرة.

فهو سبحانه وتعالى أرحم الراحمين، ووسعت رحمته كل شيء، وقد وردت في القرآن آيات وفي السنة النبوية أحاديث توضح رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٣٣] وقال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**"[٣٤]. وقد وضح المصطفى ﷺ في حديث آخر أن الله تعالى أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع، فروي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله أنه قال: قدم على النبي ﷺ سَبْيٌ فإذا امرأة من السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَها تَسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: "**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**" قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال ﷺ: "**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**"[٣٥]. فهو الرحمن الرحيم، المحب لعباده، الشفيق عليهم، والمنعم عليهم بأنواع النعم الكثيرة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وقد وردت في القرآن الكريم مقارنات غرضها بيان بعض مظاهر هذه الرحمة الإلهية والشفقة على العباد، ومظاهر نعمه الكثيرة عليهم؛ وذلك لتوجيه الأنظار نحو هذه النعم، حتى يقوم المرء بطاعة الله واتباعه بباعث الحب للمولى عز وجل، وعن طيب نفس منه. فمثلا جاءت في القرآن مقارنة بين جزاء المحسن والمسيء، فذُكر أن الذي يأتي يوم القيامة بحسنة واحدة يجازيه الله بعشر من

٣٣- سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٣٤- أخرجه البخاري في **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم الحديث: ٧٤٢٢، ص١٢٧٧.

٣٥- أخرجه البخاري في **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: ٥٩٩٩، ص١٠٥٠.

أمثالها، أما الذي يأتي بالسيئة فلا يجازيه الله إلا بمثلها[٣٦]، وما ذاك إلا مظهر من مظاهر رحمته بالعباد.

إن من الأمثلة على المقارنات التي تسعى إلى تحقيق هذا المقصد قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾[٣٧].

جاءت هذه الآية بعد بيان المحرمات من النساء على الرجال، وذكر بعض أحكام النكاح، وتحريم اتخاذ الأخدان. فبعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام قال: إنه يريد أن يوضح للناس أحكام الدين الصحيحة، ويريد أن يتوب عليهم. ثم جاءت هذه المقارنة البديعة بين ما يريده الله للبشر وما يريده الطواغيت لهم[٣٨] .

نظرة تفسيرية

فرقت الآية بين إرادة الله وإرادة المتبعين للشهوات، إذ ذكرت أن الله وحده هو الذي يريد أن يتوب على الناس بأن يحرضهم على التوبة والإقلاع عن المعاصي، وقدم المسند إليه "الله" ليدل على التخصيص الإضافي. أما الذين يتبعون الشهوات، وهم الكفرة والفسقة الذين تغلبهم شهواتهم على مخالفة ما شرعه الله لهم، ولا ينظرون في عواقب الذنوب ومفاسدها وعقوبتها، بل يرضون شهواتهم الداعية إليها، هؤلاء يريدون من الناس الميل والانصراف عن الحق إلى المعاصي ميلا عظيما، بالبعد عن الرشاد وأحكام الشرع والطعن فيها، والخروج عن قصد السبيل. وأكد فعل الميل بالمصدر ووصفه بالعظيم للمبالغة؛ "كما نبه بإطلاق لفظ الميل على أن الكفار يريدون من الناس الميل عن العدالة على أي وجه كان، إفراطا أو تفريطا"[٣٩]. والشهوات هي كل ما يغلب على النفس محبتها

٣٦- قال الله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

٣٧- سورة النساء، الآية ٢٧.

٣٨- راجع: الآيات ٢٣ – ٢٦ من سورة النساء.

٣٩- الراغب الأصفهاني، **تفسير الراغب الأصفهاني** (مكة: جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ) ج ٣، ص١١٩٨.

وهواها، واتباعها (أي: الائتمار لها) مذموم؛ أما إذا كان الاتباع من حيث العقل أو الشرع فذلك اتباع لهما لا للشهوات[٤٠].

وقفة مع المقارنة

هذه الآية فيها مقارنة بين إرادة الله تعالى وبين إرادة الشياطين الكفرة الفسقة الذين يتبعون الشهوات، فيَضِلون بأنفسهم ويُضِلون غيرهم. فبيّنت الآية أن الله تعالى يريد من عباده التوبة والإنابة إليه، ليتوب عليهم، ويغفر لهم ذنوبهم؛ وذلك ليتمكنوا من الحصول على الراحة والاطمئنان في الدنيا، ورضوان الله وثوابه في الدار الآخرة. لذا فهو يريد من عباده البقاء على الطريق المستقيم الحق الوسط الذي يوصل إلى الجنة دون ميل وانحراف عنه. وقد وصَّى الله تعالى عباده بذلك قائلا: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤١] أمَّا الكفار والفساق والطواغيت الذين همهم اتباع الشهوات والجري وراءها دون نظر إلى العقل والشرع، فهم لا يكتفون بكونهم على الضلال والفساد، بل يريدون من غيرهم أيضا أن ينحرفوا عن صراط الله المستقيم، ويميلوا عنه ميلا عظيما، لئلا يتمكنوا من الحصول على مغفرة الله ورضوانه. فهؤلاء يضلون أنفسهم ويدعون غيرهم إلى طريق الغواية الذي يبعد عن الله، فينبغي الاجتناب عنهم. ولا شك أن المقارنة أشارت بهذا إلى رحمة الله وشفقته وحبه لعباده، إذ يريد منهم الرجوع إليه، ليغفر لهم ويتوب عليهم، وهذا هو ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدين والدنيا.

إن من أهم المقاصد التي حققتها هذه المقارنة:

---

٤٠ - يُنظر: **تفسير الراغب الأصفهاني**، ج ٣ص١١٩٤ – ١١٩٨. البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤١٨هـ) ج ٢ص٧٠. أبو حيان، **البحر المحيط** (بيروت: طبعة دار الفكر، ١٤٢٠هـ) ج ٣ص٦٠٣. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٥ص٢١.

٤١- سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

بيان رحمة الله تعالى وشفقته بعباده، حيث إنه يريد لهم البقاء على الطريق المستقيم كما يريد منهم الإنابة إليه، حتى يتوب عليهم، ويغفر لهم ذنوبهم كلما ندموا على أفعالهم، وطلبوا من الله المغفرة والرضوان. فينبغي للعباد أيضا أن يرجعوا إلى الله دائما ويطلبوا منه المغفرة ويتقوه، لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ومن حبه لعباده وشفقته عليهم أنه يريد منهم الصلاح، حتى يدخلهم دار كرامته ومستقر رحمته، ولا يريد منهم الكفر والعصيان المؤدي إلى الطرد عن رحمته والدخول في عذابه.

بيان إرادة الطواغيت الفساق، وأضرار وجودهم في المجتمع، وتوضيح أنهم يحاولون إضلال غيرهم مع أنفسهم. قال الثعالبي[٤٢] رحمه الله: "مقصد هذه الآية الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقدمت إرادة الله تعالى توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات"[٤٣].

التحذير من اتباع الشهوات وطاعة المتبعين لها. قال ابن عاشور[٤٤] رحمه الله: "المقصد من التعرض لإرادة الذين يتبعون الشهوات تنبيه المسلمين إلى دخائل أعدائهم؛ ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق، ومراد أعوان الشياطين وهم الذين يتبعون الشهوات"[٤٥]. ويُفهم من الآية أيضا أنه يجب على المرء أن يهتم بالصحبة الصالحة التي تقربه من الله تعالى، ويبتعد عن الصحبة السيئة التي

٤٢- هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري، من كبار علماء الجزائر ومفسريها، ولد عام ٧٨٦هـ. تعلم من علماء كبار في تونس ومصر وغيرهما، توفي عام ٨٧٥هـ.، من كتبه: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن، روضة الأنوار ونزهة الأخيار**، وغيرها.

يُنظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٣ص٣٣١. عادل نويهض، **معجم المفسرين** (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ١٤٠٩هـ) ج ١ص٢٧٦. معجم عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج ٥ص١٩٢.

٤٣ - الثعالبي، **الجواهر الحسان**، ج ٢ص٢٢٣.

٤٤- هو محمد الطاهر بن عاشور. من كبار علماء تونس، كان مفسرا، لغويا، أديبا، نحويا، توفي عام ١٣٩٣هـ. من كتبه: **التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، موجز البلاغة**، وغيرها.

يُنظر: عادل نويهض، **معجم المفسرين**، ج ٢ص٥٤١ – ٥٤٢. الزركلي، **الأعلام**، ج ٦ص١٧٤.

٤٥- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٥ص٢١.

توقعه في اتباع الشهوات وتجعله ينحرف عن شرع الله ودينه ويميل عن طريقه.

ذكر ولاية الله للمؤمنين

إن الله ولي المؤمنين الصالحين وحاميهم وناصرهم، وهو الذي يتولى كافة أمورهم في الدنيا والآخرة، ومن كان الله وليه وناصره فلا يحتاج إلى حميم ولا ولي آخر. قال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾(٤٦) وللحصول على ولاية الله والظفر بمعيته يجب الإيمان به وطاعته وسلوك سبيل التقوى والصلاح، لأنه لا ينصر ولا يتولى إلا الصالحين، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٤٧) فهو ينصرهم في الشدائد، ويكون معهم يعينهم وينصرهم في البأساء والضراء كما يكون معهم في النعماء. وولايته للصالحين ليست محصورة في حياة الدنيا فقط، بل تكون لعباده الصالحين في الدنيا وفي الآخرة، حيث إنه يأخذ بيدهم ويثبتهم على الصراط المستقيم في الدنيا، كما يثبتهم على الصراط الذي يُنصب على جهنم يوم القيامة، ويبقى معهم حتى يُدخلهم الجنة بفضله ورحمته.

وهناك مقارنات كثيرة في القرآن أثبتت هذه الولاية التي يحظى بها المؤمنون في الدارين. ومن الأمثلة عليها ما جاء في سورة البقرة: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾(٤٨).

بعد ذكر صفات الله تعالى في آية الكرسي، بيّن الله تعالى أن الدين ليس فيه إكراه وجبر، لأن الرشد قد اتضح وتبيّن من الغي، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد نجا. وبعد ذلك جاءت هذه الآية لتقارن بين المؤمنين بالله الكافرين بالطاغوت، والمؤمنين بالطاغوت الكافرين بالله، باعتبار

٤٦- سوء النساء، الآية: ٤٥.

٤٧- سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.

٤٨- سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

ولاية الله تعالى لهما[٤٩].

نظرة تفسيرية

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه ولي المؤمنين، إذ يحبهم ويتولى أمورهم وينصرهم ويعينهم ويلازمهم بوده. وبيّن ثمرة ولايته للمؤمنين، وهي: أنه ينجيهم من الشرك، ويخرجهم بهدايته وتوفيقه من ظلمات الجهل واتباع الهوى والوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر، إلى نور الهدى الموصل إلى الإيمان. ويُفهَم من الآية أيضا أن طرق الضلال متعددة وطريق الحق واحد، لجمع الظلمات وإفراد النور. أما الذين كفروا بالله فيتولاهم الطاغوت؛ وهو اسم جنس لكل ما عُبد من دون الله، ولمن يضل الناس من الشياطين وبني آدم، والحظ الأكبر من ذلك هو للشيطان. والطاغوت حين يتولى الكفار يخرجهم بالوساوس وغيرها من طرق الإغواء من نور الإيمان الذي هو في أصل الفطرة، إلى ظلمات الكفر والشكوك والشبهات والانهماك في الغي. والظلمات في الآية أعم من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه، فهو يعمّ ما في بعض مراتب العلوم الإنسانية من نوع خفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجلية، كما أن النور يعم نور الإيمان ونور الإيقان بمراتبه ونور العيان. ثم توعد الله الكفار وأولياءهم من الطاغوت بالنار، فقال: إنهم أصحاب النار وملازموها، بسبب ما لهم من جرائم، وهم يمكثون فيها أبدا. ولم يذكر وعد المؤمنين لأن قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تتضمن كل ما يتصور من الوعد[٥٠].

وقفة مع المقارنة

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة بأسلوب غير صريح بين المؤمنين والكفار بالنظر إلى معية

٤٩- راجع: الآيات: ٢٥٥ – ٢٥٦ من سورة البقرة.

٥٠- يُنظر: ابن جزي الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل** (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤١٦هـ) ١/ ١٣٢. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ج ١ص٢٥٠ – ٢٥١. ثناء الله، **التفسير المظهري** (باكستان: مكتبة الرشيدية، ١٤١٢هـ) ج ١ص٣٦٤ – ٣٦٥. الشنقيطي، **أضواء البيان** (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ) ج ١ص١٥٨ – ١٥٩.

الله وولايته لهما. فذكرت الفرق بينهما من هذه الناحية، وهو أن الله يتولى المؤمنين بنصره وتأييده ومحبته ومعيته لهم؛ أما الكفار فيتركهم الله، ليتولاهم الطاغوت الذي يبعدهم عن المولى عز وجل. وهذا الفرق وحده يكفي بين المؤمن والكافر لو لم يكن ثمة فرق آخر، لأنه من كان الله معه فلا حاجة له إلى شيء آخر، ومن تركه الله فلا شيء معه في الدنيا ولا في الآخرة. ثم ذكرت الآية ثمار هذه الولاية وبركاتها، وهي أن الله تعالى حينما يتولى المؤمنين يخرجهم من ظلمات الحيرة والضلال والكفر إلى نور الإيمان واليقين والهداية والمعرفة. ومن ثمار ولاية الله كما جاء في آية أخرى أن الذي يتولاه الله لا يخاف من شيء ولا يحزن أبدا، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٥١) وهؤلاء لهم أيضا النعيم الدائم في الآخرة. أما الكفار فأولياؤهم من الطواغيت وشياطين الإنس والجن يخرجونهم من نور الحق والإيمان والهدى، إلى ظلمات الكفر والجهل والضلال، يتيهون فيها ويتخبطون لا راحة لهم أبدا ولا استقرار، إذ يظلون في خوف وحزن دائم بسبب هؤلاء الشياطين بخلاف المؤمنين المطمئنين المسرورين، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ ﴾(٥٢) وفي الآخرة تكون النار من نصيبهم، إذ يمكثون فيها إلى الأبد، وهي التي تتولاهم يوم القيامة، ويقال لهم: ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٥٣).

إن من أهم المقاصد التي حققتها هذه المقارنة:

- إثبات محبة الله وولايته ومعيته للمؤمنين، وإعراضه عن الكفار وتسليمهم إلى الطواغيت التي تضلهم.
- بيان فضيلة الإيمان على الكفر في الدنيا والآخرة.

٥١- سورة يونس، الآيات: ٦٢ – ٦٤.

٥٢- سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

٥٣- سورة الحديد، الآية :١٥.

- الدعوة إلى الإيمان بالله وطاعته لنيل ولايته ونصرته ومعيته في الدنيا والآخرة.
- بيان أهمية الصحبة الصالحة، فعلى المرء أن يختار الصحبة الصالحة التي تذكره بالله وتقربه منه، ويتجنب الصحبة السيئة التي تخرجه من النور وتتركه يتيه في ظلمات الكفر والضلال.

رابعاً: إثبات سعة علم الله وطلاقة قدرته

إن من أهم المقاصد التي يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقها هو الإيمان بالله تعالى وتوحيده كما مرّ سابقا. فالقرآن الحكيم يدعو الناس دائما إلى الإيمان بالله تعالى، وتوحيده الذي هو أساس الدخول في الدين الحنيف. وللإيمان الصحيح بالله تعالى لا يكفي الإيمان بوحدانيته وعبادته وحده فقط، بل ينبغي إثبات جميع صفات الكمال له جل وعلا، والتي منها صفة العلم والقدرة؛ فيجب الإيمان الكامل بعلمه الواسع، والاعتراف التام بقدرته المطلقة، إذ لا يكتمل إيمان المؤمن بدون ذلك.

وهناك آيات كثيرة أثبتت لله تعالى العلم الواسع المطلق، كما أثبتت طلاقة القدرة الإلهية، فوُصف سبحانه وتعالى بأنه علام الغيوب في كثير من الآيات المباركة، كما ذُكر أنه أحاط بكل شيء علما، وأنه عالم الغيب والشهادة وما إلى ذلك. ومن أبرز الآيات التي تثبت لله تعالى العلم الواسع الذي لا يمكن لأحد غير الله أن يدعيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٥٤].

وكذلك كثرت في القرآن الكريم آياتٌ تثبت لله تعالى القدرة المطلقة، فذُكر في موضع أنه القاهر فوق عباده[٥٥]، وأنه على كل شيء قدير[٥٦] وغير ذلك. وكل ذلك لإثبات أنه تعالى هو

٥٤- سورة الأنعام، الآية ٥٩.

٥٥- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٨.

٥٦- قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

المستحق للعبادة وحده دون شريك.

وقد وردت في القرآن الكريم مقارنات كثيرة تهدف أيضا إلى إثبات العلم الواسع لله تعالى المحيط بكل شيء، حيث ورد في موضع إنكار على من ادّعى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى بقوله: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[٥٧]. فسُئِلوا باستفهام إنكاري: هل هم أكثر علما من الله تعالى؟! ولا شك أن هذا لا يدّعيه عاقل. وكذلك وردت مقارناتٌ بهدف إثبات طلاقة القدرة الإلهية، والتأكيد على عجز كل ما سواه مما يُعبد ومما لا يُعبد، فكل ما سوى الله عاجز أمامه، وإن جعله السفهاء شريكا له في ملكوته.

ومن الأمثلة على مثل هذه المقارنات قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[٥٨].

وردت هذه الآيات في سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فذكر الله سبحانه أن إبراهيم عليه السلام خاطب أباه وقومه في شأن الأصنام التي هم عاكفون عليها، فسألهم: ما تعبدون، فأجابوا قائلين: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. فبيّن لهم سيدنا إبراهيم عليه السلام حقيقة آلهتهم، ووضح لهم زيفها، وأثبت طلاقة القدرة الإلهية، كما أثبت كون الله تعالى مستحقا للربوبية والوحدانية، بإجراء مقارنة غير صريحة بين الطرفين[٥٩].

٥٧- سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

٥٨- سورة الشعراء، الآيات: ٧١ – ٨٢.

٥٩ - راجع: الآية ٦٩ وما بعدها من سورة الشعراء.

نظرة تفسيرية

خاطب سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، وسألهم عن معبوداتهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة، فقال: ماذا تعبدون؟ فأجابوه افتخارا وابتهاجا بفعلهم أنهم يعبدون أصناما، وسيظلون مقيمين على عبادتها. فوجّه لهم إبراهيم عليه السلام استفهاما عن حال هذه الأصنام، تنبيها على انتفاء الإلهية عنها؛ لأن الرب هو الذي يُلجأ إليه عند مواجهة الشدائد، والذي لا ينفع في الشدائد لا يستحق أن يُسمى ربا. فقال إبراهيم عليه السلام: هل تسمع هذه الأصنام دعاء الداعين؟ وهل تنفع إذا أطيعت وتضر إذا عصيت؟ فأنى تعبدون من لا يسمع ولا يملك نفعا ولا ضرا؟ ولما عجز القوم عن دفع هذه الحجة قالوا: إنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام عن آبائهم. فأراد سيدنا إبراهيم أن ينبههم على خطئهم، فقال: أفكرتم فعلمتم حقيقة ما تعبدون أنتم وآباؤكم؟ ثم أظهر قلة اكتراثه بهذه الأصنام، فقال: إنهم عدو لي، وأنا أبغضهم. وذكر ذلك لأنه أيقن بأن سلامته بعد ذلك تدل على أن الأصنام لا تضر، وإلا ضرته لأنه عدوها. وقد استثنى رب العالمين من بين معبوداتهم[٦٠]، ثم ذكر صفاته، فقال: هو الذي خلقني جسدا وعقلا، ويهديني إلى الطريق المستقيم، وبذلك جمع خير الدين والدنيا، وهو الذي يوفر لي الطعام والشراب، وبيده الشفاء من الأمراض[٦١]، وهو الذي يميتني ثم يحييني يوم الجزاء، وهو الذي أرجو أن يغفر لي ذنوبي يوم القيامة. وبهذه الألفاظ جمع سيدنا إبراهيم عليه السلام جميع نعم الله من أول الخلق إلى آخر الأبد[٦٢].

٦٠- في الاستثناء هنا قولان: أحدهما أنه منقطع، و"إلا" بمعنى "لكن"، هذا إذا كان رب العالمين غير مشمول لعبادتهم، إذ الظاهر أنهم ما كانوا يعترفون بالخالق، ولم يكونوا يجعلون آلهتهم شركاء لله. وقد يكونون معترفين برب عظيم خالق للأكوان، وإنما جعلوا الأصنام شركاء له، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا. يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩ص١٤١.

٦١- وأسند المرض إلى نفسه في قوله "مرضت" تأدبا مع الله تعالى.

٦٢- يُنظر: الثعالبي، **الجواهر الحسان**، ج ٤ص٢٢٩. الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٤ص٥١٠ – ٥١٣. ابن عاشور،

وقفة مع المقارنة

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين الآلهة الباطلة والإله الحقيقي الذي هو الله رب العالمين، على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. ولا شك أن ثمة فرق كبير بين الله الإله الحقيقي وبين المعبودات الباطلة، وهذا ما لا يتأتى لعاقل إنكاره. وقد ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام في محاجّة قومه بعض هذه الفروق كما جاءت في هذه الآيات المباركة. فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وأوجده من العدم، وهو الذي يسّر أسباب الهداية، ليختار الطريق المستقيم الموصل إلى السعادة، وهو الذي وفر للإنسان جميع أنواع الرزق من المأكولات والمشروبات وغيرهما، وهو الذي بيده الشفاء من الأمراض الروحية والبدنية، وهو وحده الذي يملك مغفرة الذنوب لمن يشاء من عباده يوم الحساب، حين يُحشر إليه الناس كلهم. أما الأصنام التي يعبدها الكفار فهي لا تملك شيئا من هذه الأمور، بل هي أضعف من أن تقدر على أمور أبسط وأقل شأنا منها، فهي لا تسمع دعاء الداعين، ولا تجيب، كما أنها غير قادرة على نفع أحد أو ضره، بل هي غير قادرة على جلب النفع لنفسها ودفع الضر عنه. ولا يعبدها الناس إلا سفها وحماقة بحجة تقليد الآباء الأقدمين، ولو أعملوا عقولهم لما عبدوها أبدا، والعاقل هو من يعبد الله وحده بلا شريك.

لقد أثبتت هذه المقارنة قدرة الله المطلقة القادرة على جميع الموجودات، فالله هو القادر على كافة خلقه، ولا يخرج عن قبضة قدرته شيء من مخلوقاته. ومن مظاهر قدرته على الناس أنه يوجدهم من العدم، ويوفر لهم الرزق والهداية، وهو الذي يجمعهم يوم الحساب، ويجازيهم على أعمالهم يوم القيامة.

وإلى جانب إثبات طلاقة القدرة، حققت هذه المقارنة مقاصد أخرى أيضا، أهمها:

- الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد دون شريك، ونبذ الشرك وجميع أنواع الآلهة

التحرير والتنوير، ج ١٩ص١٣٩ – ١٤٤. لجنة من العلماء، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم** (مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٥م) ص٥٤٩.

الباطلة.

- إثبات منتهى عجز الأصنام وضعفها.
- بيان مظاهر نعم الله على عباده، لتبعث في قلوبهم حبه والشوق إلى طاعته.
- بيان ضلال وسفه الذين يتبعون آباءهم على ضلال دون إعمال العقول.
- توجيه العقول نحو التفكر والتدبر للوصول إلى الحقائق، والتمييز بين الحق والباطل، وإدراك الطريق الصواب.

المبحث الثاني: المقارنة القرآنية المتعلقة بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب ومقاصدها

أولاً: إثبات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بيَّنت فضل الإيمان على الكفر، ونفت المساواة بين المؤمن الذي يعيش سعيا لنيل رضا الله تعالى والكافر الذي لا يهتم برضا الله تعالى. وهذه القضية من أهم القضايا التي اهتم بها القرآن، ولذا جاءت في القرآن مقارناتٌ كثيرة بقصد إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر.

ولا شك أن بين الإيمان والكفر فرقا كبيرا، فالإيمان يحبه الله ويرضاه والكفر يبغضه الله ولا يرضاه أبدا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ (٦٣) والله تعالى مع عباده المؤمنين ينصرهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٦٤) وكونه تعالى مع المؤمنين يدل على أنه ليس مع الكافرين، بل إنه يتركهم يتيهون في ظلمات الكفر والضلال، ويخذلهم في الدنيا وفي الآخرة حتى يصلوا إلى النار، ويقعوا فيها على وجوههم. ولا شك أن هذا من أهم ما يدلّ على فضيلة المؤمن على الكافر، والإيمان على الكفر. فلا مساواة بين المؤمن والكافر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، والإيمان والكفر لا يتساويان أبدا، ولا

٦٣- سورة الحجرات، الآية: ٧.

٦٤- سورة الأنفال، الآية: ١٩.

يجتمعان في قلب بشر، لأن الإيمان إذا دخل القلب ورسخ فيه ثبت الإنسان، فلا تكسره حوادث الدهر وشدائده، ولا تزعزع ثقته بربه، أما الكفر فإنه يُضْعِف القلب، فلا يثبت الكافر على شيء، بل يظل مترددا متحيرا. وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤمن رابح، في حين أن الكافر خاسر في الدنيا والآخرة.

وإلى جانب هذه الآيات المباركة وأخرى غيرها، هناك أمثلة ووقائع كثيرة من التاريخ تشهد على فضيلة المؤمن على الكافر، ومنها قصة ماشطة ابنة فرعون التي أحرقها فرعون بسبب إيمانها بالله جل وعلا، وسمع النبي ﷺ رائحتها الطيبة ليلة أُسري به، بعد قرون من وفاتها(٦٥). أما عدوّها فرعون الكافر الذي أحرقها فمات غرقا في الماء، وسيبقى في عذاب إلى قيام الساعة، وسوف يُعذَّب في الآخرة في نار جهنم. قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾(٦٦) وهذه الأمثلة من التاريخ، وغيرها من الأمور الكثيرة تثبت فضيلة الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر، وهما لا يستويان أبدا في نظر أحد من أولي الألباب.

وقد وردت في القرآن الكريم مقارنات كثيرة توضح هذا الأمر لذوي العقول السليمة،

٦٥- عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا. قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ".

رواه أحمد في **مسند أحمد**، رقم الحديث ٢٨٢١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ج ٥ص٣٠. وأخرجه ابن حبان في **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، رقم الحديث ٢٩٠٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ) ج ٧ص١٦٣.

٦٦ - سورة غافر، الآية ٤٦.

حتى يتعظوا ويعتبروا، ويسلكوا سبيل الإيمان، ويتركوا سبيل الكفر. ومن هذه المقارنات على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[٦٧].

فبعد بيان أن الناس فقراء إلى الله تعالى وأن الله غني عنهم قادر على الذهاب بهم والإتيان بخلق جديد، ذكر الله تعالى أن كل إنسان يحمل حمله يوم القيامة ولا ينفع أحدٌ أحدا في ذلك اليوم دون إذن الله ولو كان ذا قربى. ثم ذكر أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار، والإيمان والتزكية لا يعودان بالنفع إلا على أصحابهما[٦٨]. وبعد ذلك قارنت هذه الآيات بين الإيمان والكفر والمؤمن والكافر.

نظرة تفسيرية

ساق الله سبحانه في هذه الآيات أمثلة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر، وبين الإيمان والكفر، وبين العلم والجهل، وبين الجنة والنار. فذكر أنه كما لا يستوي في عرف عاقل الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، وكما لا تجوز المساواة بين الظلمات والنور كذلك لا يستوي الكفر والإيمان، وكما لا تصلح المساواة بين المكان الظليل والمكان الشديد الحرارة ذي الريح الحارة التي تلفح الوجوه من شدة حرها، كذلك لا تتساوى الجنة والنار. فالأعمى والبصير هنا تمثيل للمؤمن والكافر، والظلمات والنور تمثيل للكفر والإيمان، والظل والحرور تمثيل للثواب والعقاب، أي: الجنة والنار، والأحياء والأموات تمثيل لمن آمن، فهو كالحي، ومن لم يؤمن فهو كالميت، وجاءت هذه الأمور على سبيل الاستعارة والتمثيل، وهي تتضمن الطعن على الكفرة الذين هم كالعميان في عدم الاهتداء، كما تتضمن المدح للمؤمنين الذين هم كالأحياء المنتفعين بالأبصار. وبعد بيان عدم استواء هذه الأمور رد الله أمر الإيمان والكفر إلى مشيئته، فقال: إن الله

٦٧- سورة فاطر، الآيات ١٩ – ٢٣.

٦٨- راجع: الآيات ١٥ – ١٨ من سورة فاطر.

يسمع من يشاء أن يسمعه ويهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها، أما أنت يا محمد فليس في استطاعتك أن تُسْمِع الجاحدين المصرّين على كفرهم الذين هم أشبه بالموتى في القبور في عدم السماع والانتفاع بالدعوة، فلا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم. وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من الجاحدين (٦٩).

وقد ذكر الشيخ السمين الحلبي(٧٠) بعض اللطائف في تفسير هذه الآية، فقال: "ولم يعد "لا" تأكيدا في قوله "الأعمى والبصير" وكررها في غيره؛ لأن منافاة ما بعده أتم، فإن الشخص الواحد قد يكون بصيرا ثم يصير أعمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور والظلمات والنور، فإنها متنافية أبدا، لا يجتمع اثنان منها في محل، فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور دائمة ... فإن قيل: الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر، فإن الجسم قد يكون متصفا بالحياة ثم يتصف بالموت، فالجواب: أن المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، لأن الأعمى والبصير يشتركان في إدراكات كثيرة ولا كذلك الحي والميت... وأفرد الأعمى والبصير لمقابلة الجنس بالجنس، لأن التفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد. والأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أم الفرد بالفرد"(٧١).

٦٩- يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج ٤ص٤٣٥ – ٤٣٦. ابن جزي الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج٢ص١٧٤. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ) ج ٦ص٤٨٠ – ٤٨١. طنطاوي، **التفسير الوسيط** (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٨م) ج ١١ص٣٤٠ – ٣٤١.

٧٠ - هو أبو العباس أحمد بن يوسف شهاب الدين الحلبي، المعروف بالسمين، من فقهاء الشافعية العالمين بالنحو والتفسير والقراءات، توفي عام ٧٥٦هـ. من كتبه: **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز**، وغيرها.

يُنظر: الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ص٢٨٧. عادل نويهض، **معجم المفسرين**، ج ١ص٨٤. **الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير**، ج ١ص٤٥٥.

٧١- السمين الحلبي، **الدر المصون** (دمشق: دار القلم) ج ٩ص٢٢٥ – ٢٢٦، بتصرف.

وقفة مع المقارنة

هذه الآيات الكريمة فيها مقارنات صريحة باستخدام أسلوب مباشر بين الإيمان والكفر وبين المؤمن والكافر، حيث نفت الآيات المباركة المساواة بين الإيمان والكفر وبين المؤمن والكافر، وبين الجنة جزاء المؤمنين، والنار جزاء الكفار، وبنفي المساواة بين هذه الأمور أثبتت فضيلة أوائل هذه الأمور على أواخرها.

فقد أثبتت الآيات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر في الدنيا وفي الآخرة. فذكرت أن الكافر مثل الأعمى الذي لا يميز بين الخير والشر، ولا يرى الطريق الحق من الصواب، بل يتخبط في حياته في الكفر الذي هو مثل الظلمات التي لا يسترشد الإنسان فيها إلى الطريق الصواب الموصل إلى الهدف والغرض المنشود. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكافر مثل الميت الذي فقد كافة حواسه، فلا يستطيع أن يستفيد من حاسة منها لمعرفة الطريق الحق والوصول إلى الغاية المنشودة، فلا طمع في هدايته وعودته إلى الله تعالى وإلى دينه، فهو بالإضافة إلى عدم رؤيته للصواب، لا يسمع أيضا منادي الإيمان يدعوه إلى ما فيه خيره وصلاحه، ويظل طيلة حياته كذلك حتى يصل في النهاية إلى مكان الحر الشديد والسموم الذي لا راحة فيه ولا طمأنينة لأحد، وهو نار جنهم والعياذ بالله.

ولا شك أن من كانت هذه حالته في الدنيا والآخرة لا يستوي مع المؤمن الذي هو ضده تماما. فقد شبه الله المؤمن بالبصير الذي يستفيد من بصره وبصيرته للتمييز بين الحق والباطل، ومعرفة الطريق الصواب من الخاطئ، فيختار السلوك في الطريق الصحيح المستقيم الموصل إلى الهدف المنشود من الحياة، فيكون في نور دائم، وهو نور الإيمان الذي يساعده في التغلب على مشكلات الحياة، والثبات على الصراط المستقيم. وبالإضافة إلى كونه بصيرا، هو حي بالمعنى الصحيح، حيث يسمع الدعوة إلى الخير فيستجيب لها، ويستفيد من كل الحواس التي أنعم الله بها عليه ليسلك الطريق الصواب. وإيمانه نور ينير له ولغيره الطريق، فهو كالحي الذي فيه فائدة للناس

جميعا، إذ يرشدهم إلى الحق ويدعوهم إلى الله، وهذا هو ما فيه صلاحهم وفلاحهم. وبعد هذه الحياة المليئة بالخير يحصل في الآخرة على المكان الذي فيه ظل ظليل لا شمس فيه ولا زمهرير، وهو الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين به الصالحين.

لقد حققت هذه المقارنة عدة مقاصد؛ أهمها: القطع بنفي المساواة بين المؤمن والكافر وبين الإيمان والكفر، وبالتالي إثبات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر في الدنيا والآخرة، والتوجيه نحو التفكر والتدبر في خير الفريقين (المؤمنين والكافرين)، ثم الدعوة إلى سلوك طريق المؤمنين، الطريق الحق الذي يسلكه الأحياء أولو الأبصار، واجتناب طريق الكفار الذي لا يسلكه إلا من كان أعمى فاقد البصيرة، ميتا فاقد الحواس.

ثانياً: إصلاح عقائد البشر

إن القرآن الكريم اهتم بإصلاح عقائد البشر اهتماما كبيرا؛ فهو لم يتطرق في بداية نزوله إلا للأمور الأساسية من العقائد والأخلاق؛ إذ كانت السور والآيات المكية معظمها تدور حول إصلاح العقائد الباطلة التي كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي المكي. وبعد إصلاح العقائد، انتقل القرآن الكريم إلى الأمور الأخرى من تشريعات وحلال وحرام وحدود وغيرها من الأمور التي نزلت أحكامها في المدينة المنورة. وقد نزلت آيات كثيرة من القرآن الحكيم تأمر بالتوحيد وعبادة الله وحده، والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتفاصيل هذه الأركان، كما نزل كثير من قصص الأنبياء بغرض إثبات أن دعوة الرسل جميعا واحدة، والغرض الأول من بعثتهم كلهم هو إصلاح عقائد أقوامهم.

وإلى جانب هذه الآيات المباركة وردت في القرآن الحكيم مقارنات قصدها إصلاح العقائد، والتأكيد على أهمية هذا الأمر، وترسيخ العقائد الصحيحة في الأذهان. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٧٢].

لقد تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن القرآن الكريم وبيّنت أن الله نزل أحسن الكلام، الذي يؤثر في الذين يخشون ربهم، والله يهدي به من يشاء. ثم ذُكر الكافر الذي يُلقى في النار ويحاول أن يقي نفسه من هذا العذاب بوجهه، كما ذكر أن الذين كذبوا قبلهم جاءهم عذاب الخزي في الدنيا وفي الآخرة. وبعد ذلك ذكر الله أنه ضرب في هذا القرآن أمثالا للناس لعلهم يتذكرون، وهذا القرآن عربي لا عوج فيه نزل للناس رجاء أن يتقوا ربهم ويتعظوا. وبعد ذلك جاءت هذه الآية لتوضح الفرق بين المشرك والموحد في الحياة الدنيا بشكل خاص[٧٣].

نظرة تفسيرية

ضربت هذه الآية مثلين لرجلين، أحدهما مشرك يعبد آلهة كثيرة، والآخر موحد يعبد الله الواحد الأحد، فمثلت للمشرك برجل مملوك لشركاء مختلفين يتنازعون فيما بينهم، ومثلت للموحد برجل مملوك لسيد واحد خالص له. ففيها تمثيل لحال المشرك في تقسيم عقله بين آلهة كثيرة، وبقائه في حيرة وشك متردد في أموره، إن أرضى أحدا أغضب الآخر، لأن رغباتهم مختلفة؛ فيظل ضائعا لا يدري على من يعتمد. فهو مثل المملوك الذي اشترك فيه عدة مالكين، ولا بد أن يكون بينهم اختلاف وتنازع، إذ يطلبون منه أعمالا شتى ويرسلونه في حوائج مختلفة، وهو حيران يعيش في تعب وعذاب دائم، لا يرتاح ولا يطمئن. وبالتالي لا تجتمع قواه لأداء واجبه، فيظل متحيرا جاهدا في سبيل إرضاء جميع السادة لكنه لا يملك إلى ذلك سبيلا. وإذا احتاج إليهم في شيء رده كل واحد إلى الآخر، ولم يجد مساعدة من أحد. وهكذا يكون حال المشرك، فلا يستريح ولا يريح. أما المسلم الموحد فيقوم بما كلفه به الله، ويسير على هدى وبصيرة، يعرف إلها واحدا، يعبده ويخدمه دون حيرة وتردد، ويرجع إليه عند مواجهة الشدائد. فهو مثل العبد المملوك لسيد واحد، يعرف أوامره ويعلم

٧٢- سورة الزمر، الآية ٢٩.

٧٣- راجع: الآيات ٢٣ – ٢٩ من سورة الزمر.

ما يريده منه سيده، فقلبه مجتمع وذهنه متجه نحو هدف واحد؛ فيخدم سيده بإخلاص، ويجد منه المعونة والشفقة كلما احتاج إلى ذلك، لذا فهو يرجع إليه في مصائبه ومشكلاته. وكذلك المؤمن تجتمع طاقاته وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده. وهذا هو الحال في كل متبع للحق ومتبع للباطل؛ فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه ويثقل أعماله، أما متبع الباطل فيظل حائرا يتخبط في أعماله ولا يدري إلى أين يتجه(٧٤).

وقال الرازي(٧٥) رحمه الله: "هذا المثل في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد. فإن قيل: هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ومشاكسة. قلنا: إن عبدة الأصنام مختلفون، فمنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، ويثبتون بينها منازعة ومشاكسة، ومنهم من يقول إنها تماثيل الأرواح الفلكية وزعموا أن كل حوادث العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحينئذ يحصل بينها منازعة ومشاكسة. ومنهم من يقول إنها تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد ويعبدونها طمعا في الشفاعة. وهكذا ينطبق المثال، ويثبت أنه مطابق للمقصود"(٧٦).

وقفة مع المقارنة

تقارن هذه الآية بين المشرك الذي يعبد آلهة متعددة وبين المسلم الذي يعبد إلها واحدا

٧٤- يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٣ص٤٠١ – ٤٠٢. أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي** (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٦٥هـ) ج ٢٣ص١٦٤. سعيد حوى، **الأساس في التفسير** (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٤هـ) ج ٩ص٤٨٤٧.

٧٥- هو محمد بن عمر فخر الدين الرازي القرشي، الشافعي المفسر المتكلم، ولد عام ٥٤٤هـ. كان فريد عصره وإمام زمنه في العلوم العقلية. ألف في التفسير والفقه وعلم الكلام. توفي عام ٦٠٦هـ. من كتبه: **مفاتيح الغيب**، **مناقب الشافعي**، وغير ذلك.

يُنظر: السيوطي، **طبقات المفسرين**، ص١١٥ – ١١٦. الداودي، **طبقات المفسرين**، ج ٢ص٢١٥ – ٢١٨. الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ص٢١٣ – ٢١٤.

٧٦- يُنظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦ص٤٥١، بتصرف.

باستخدام أسلوب ضرب المثل. فقد مثَّل الله للمشرك برجل مملوك يتنازع فيه شركاء مختلفون فيما بينهم، وهو لا يدري من يطيع وماذا يفعل، ومَثَّل للمسلم برجل مملوك يطيع سيدا واحدا يفعل ما يأمره، وليس هناك من يختلف معه ويخالفه في أمره. ثم وَجَّهَ استفهاما قائلا: هل يستوي هذان الرجلان، ومن البديهي أن هذين لا يستويان أبدا لكن الناس لا يفهمون.

فالمسلم يستطيع أن يلبي أوامر ربه ويرضيه، لأن طريق رضا الله تعالى واحد يسير عليه الإنسان فيصل إلى مرضاة الرب سبحانه وتعالى، ولا يواجه أوامر سادة متنازعين تصرفه عن هذا الطريق المستقيم. أما المشرك فيظل حائرا بين أرباب شتى وآلهة مختلفين إذا أرضى أحدهم أغضب الآخر، وإذا لبى أمر أحدهم تجاهل أمر الآخر. ولا يمكن للآلهة كلها أن تتفق على أمر واحد، كما أن السادة المتشاكسين للعبد المملوك لا يتفقون على رأي واحد. وكما أن هذين لا يستويان، كذلك لا يستوي الموحد والمشرك أبدا.

وفي الآية أيضا مقارنة بين الراغب والزاهد. فالراغب في الدنيا تشغله أمور كثيرة تصرفه عن طاعة ربه فلا يتوجه إلى عبادته بكامل إخلاصه، وإذا كان في العبادة تشغله أمور أخرى ينصرف إليها قلبه. فلا يستطيع أن يتفرغ للعبادة كاملا، بل يظل بين مطالب مختلفة متشاكسة يفكر فيها ولا يخلص لعبادة الله وحده. أما الزاهد فقلبه لا ينصرف إلا إلى عبادة الله وحده، فهو يتفرغ للعبادة ويترك كافة الأعمال الدنيوية في وقت العبادة ولقاء الله، وبالتالي يعبد ربه خالصا لوجهه خوفا منه وطمعا في رضاه وثوابه[٧٧].

ولا شك أن من يتأمل في هذا المثل البليغ الذي ضربه الله للمشرك والموحد يدرك الفرق الشاسع بين المؤمن والمشرك في الدنيا، ويتيقن من أنهما لا يستويان في الدنيا ولا في الآخرة. قال ابن القيم[٧٨] رحمه الله: "وهذا من أبلغ المثال. فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه

٧٧- يُنظر: أبو الليث السمرقندي، **بحر العلوم**، ج ٣ص١٨٥.

٧٨- هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي، من كبار العلماء. ولد عام ٦٩١هـ. تتلمذ على كثير

والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين"[٧٩].

ومن أهم مقاصد هذه المقارنة: بيان أهمية التوحيد، وإصلاح عقائد البشر، وترسيخ العقيدة الصحيحة في الأذهان، لأن المثل يزيد المعنى المقصود بيانه وضوحا، ويثبته في الأذهان.

التشويق للجنة والتخويف من النار

إن من الأمور التي اهتم بها القرآن الكريم كثيرا التشويق للجنة والتخويف من النار. والجنة والنار من الأمور التي لا تُذْكَر في القرآن الكريم إلا مقترنة، والغرض من ذكرهما معا بين كل حين وآخر، الحث على الإيمان بالآخرة والاستعداد لها، والتشويق للجنة ونعيمها والتخويف من النار وعذابها، والدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وطاعته، والابتعاد عن الكفر والفسوق والعصيان.

ولا شك أن الجنة والنار لا تتساويان أبدا، بل إن بينهما فرقا كبيرا، فتشتركان في أن كليهما من مخلوقات الله تعالى، خلقهما الله وأعدهما لمجازاة عباده. فالجنة مظهر رحمة الله وثوابه، في حين أن النار عذاب الله ومظهر غضبه. قال رسول الله ﷺ: "تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا"[٨٠].

من العلماء، أهمهم ابن تيمية. توفي عام ٧٥١هـ. من كتبه: **إعلام الموقعين، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، وغيرها. يُنظر: الخليل الصفدي، **الوافي بالوفيات** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ) ج ٢ص١٩٥. السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج ١ص٦٢. الزركلي، **الأعلام**، ج ٦ص٥٦.

٧٩- ابن قيم الجوزية، **الأمثال في القرآن** (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٠م) ص٢٦١.

٨٠- أخرجه البخاري في **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب قوله تعالى "وتقول هل من مزيد"، رقم الحديث ٤٨٥٠، ص٨٥٨.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة جدا تشوق الناس إلى الجنة دار النعيم التي أعدها الله لعباده الصالحين، والتي فيها كما أخبرنا حبيبنا ﷺ: "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٨١)(٨٢).

فالجنة يدخلها عباد الله الصالحون الأبرار، الذين من بينهم الأنبياء والصديقون والشهداء. هؤلاء يساقون إلى الجنة زمرا، ولما يصلون إليها تُفتح لهم أبوابها الثمانية، وتسلم عليهم الملائكة هنالك وترحب بهم، ثم يُقدَّم لضيوف الرحمن نزلا من غفور رحيم. ويجلس في الجنة أهلها على سرر متقابلين لا غِلّ في قلوبهم ولا حقد ولا حسد، ويتمتعون معًا بنعيم الجنة الذي لا يدانيه نعيم. أما جهنم فتكون بانتظار الأشقياء الفجار، بأبوابها السبعة، ليدخلها هؤلاء، وهي تتنفس غيظا وغضبا على أعداء الله، وترمي ﴿ بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾(٨٣) يُلقِي الله أصحابها فيها، لا يفرح بمقدمهم أحد، ولا يجدون فيها تكريما وترحيبا، بل إن أصحاب النار حينما يدخلون فيها ويجتمعون يتخاصمون فيما بينهم، ويلعن بعضهم بعضا، ويسألون الله لبعضهم عذابا شديدا مضاعفا، كما أن الملائكة توبخهم وتعنفهم على ما صنعوا في حياتهم الدنيوية.

ومن أهم الفروق التي تميّز بينهما أيضا أن أهل الجنة يلبسون ثيابا فاخرا من حرير وسندس وإستبرق، ويستظلون بظلال الأشجار التي يسير الراكب فيها مائة عام لا يقطعها، والتي قربت منهم ثمارها ليقطفوها كما يشاءون، ويتلذذون بأنهار الماء واللبن والخمر والعسل. أما أهل النار فثيابهم من نار، وسرابيلهم من قطران، ويأكلون من شجرة الزقوم التي لا تُسمِن ولا تُغني من

٨١- سورة السجدة، الآية: ١٧.

٨٢- أخرجه البخاري في **صحيح البخاري**، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم الحديث: ٣٢٤٤، ص٥٤١.

٨٣- سورة المرسلات، الآيتان: ٣٢ – ٣٣.

جوع، بل يزيد أكلها في عذابهم وألمهم. ويُذبَح الموت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم.

فلا تستوي الجنة والنار أبدا، ولا يستوي أصحابها، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٨٤).

وهناك مقارنات كثيرة بيّنت هذه الفروق العظيمة بين الجنة والنار تشويقا للجنة، وترغيبا في الأعمال الصالحة المؤدية إليها، وتخويفا من النار، وتحذيرا من الأعمال المؤدية إليها، فليتعظ أولو الألباب، وليحذروا من اشتراء العذاب الأبدي مقابل نعيم الدنيا الفاني؛ فيُحرموا من هذا النعيم السرمدي الذي لا يمكن إدراكه في الدنيا. ومن هذه المقارنات البليغة قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾(٨٥).

جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن يوم القيامة، حيث يُنفخ في الصور فيصعق الجميع، ثم يُنفخ مرة أخرى فيقومون، وتشرق الأرض بنور ربها، ويُقضَى بين الناس بالحق، وتُوَفَّى كلُّ نفس جزاء ما عملت، والله يعلم ما يفعل الناس، وهو لا يظلم أحدا. ثم ذُكِر في هذه الآيات مصير الناس بعد الحساب والجزاء(٨٦).

٨٤- سورة الحشر، الآية: ٢٠.

٨٥ - سورة الزمر، الآيات: ٧١ – ٧٤.

٨٦ - راجع: الآيات ٦٨ – ٧٤ من سورة الزمر.

نظرة تفسيرية

أخبر الله تعالى عن مصير الفريقين بعد الفراغ من الحساب، فقال: إن الذين كفروا تسوقهم الملائكة إلى النار بشدة وعنف، لأنهم لا يريدون الذهاب إليها، في جماعات وأفواج متفرقة بعضها في إثر بعض. ولما يصلون إليها تفتح لهم أبوابها التي كانت مغلقة، كأبواب السجون التي لا تُفتح إلا عند مجيء السجناء، وفي ذلك ذلّ وهوان لهم، وتقول لهم خزنتها توبيخا وتقريعا لهم: ألم يأتكم رسل من أنفسكم يتلون عليكم آيات ربكم المبينة لكم الهدى من الضلال والحق من الباطل، وما يحب ربكم وما يكره. فيجيبونهم قائلين: بلى أتتنا الرسل، وتلت علينا آيات ربنا، ولكن كفرنا، وقد وجبت كلمة العذاب على الكافرين، ونحن منهم، فوجب علينا العذاب، لسوء أعمالنا وكفرنا وضلالنا. وحينئذ تقول لهم الملائكة: قبح مأوى المتكبرين في جهنم. أما الذين اتقوا فيساقون إلى الجنة على مراكب كريمة يركبونها، تُسْرِع بهم إلى الجنة دار الكرامة، وتسوقهم إليها بلطف وتكريم في جماعات وطبقات مختلفة، منها طبقة الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وما إلى ذلك. هؤلاء يصلون إلى الجنة، وقد فتحت أبوابها قبل وصولهم إليها، لاستقبالهم معززين مكرمين، ولأن فيه فرحاً وسروراً لهم. وتقول لهم الملائكة: سلام عليكم طبتم من دنس المعاصي وخبث الخطايا، وطابت أعمالكم، فأبشروا بالسلام من كل الآفات، وطاب لكم المقام، فادخلوا الجنة دار الطيبين ومثوى الطاهرين، خالدين فيها إلى الأبد. فيقولون بعد خلودهم في الجنة ونزولهم في قصورها: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا أرض الجنة ننزل فيها حيث نريد النزول؛ وفيها أيضا إشارة إلى أنهم ورثوها من أبويهم آدم وحواء، إذ كانت لهم قبل نزولهم إلى الأرض، والآن صارت ملكا لهم يتصرفون فيها كما يشاءون. ونعم ثواب المطيعين العاملين في الدنيا بالإيمان والتقوى، الجنة في العقبى[٨٧].

٨٧- يُنظر: الزمخشري، **الكشاف** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ) ج ٤ص١٤٦ – ١٤٧. الخازن، **لباب التأويل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ) ج ٤ص٦٥ – ٦٦. الجزائري، **أيسر التفاسير** (المدينة المنورة: مكتبة العلوم

وقفة مع المقارنة

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين بعض ما يلقى أهل النار من الجزاء القبيح، وبعض ما يجده أهل الجنة من الجزاء الطيب، بالربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد. فذكرت الآيات بعض الفروق بينهما، وهي:

أن أهل النار يساقون إلى النار أفواجا وجماعات متفرقة، كل أمة على حدة، تسوقهم الملائكة إليها سوق ذلّ، ومعها سياط يضربون بها أهل النار الكفار. أما أهل الجنة فيساقون إليها في جماعات، فيها النبيون والصديقون والشهداء والعلماء، سوق احترام وإكرام، جالسين على مراكب تليق بهم وبالذي نزلوا عنده، وهو الغفور الرحيم. قال الزمخشري[٨٨] رحمه الله: "سوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان، وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين"[٨٩].

أن النار تبقى أبوابها مغلقة، حتى إذا وصل أهلها إليها تُفتح أبوابها لهم، ويُلْقَوْن فيها على وجوههم، فتحيط بهم النار من كل جانب، كما تكون أبواب السجن مغلقة، حتى إذا وصل المجرمون فُتحت لهم، ثم تُغلق بعد إلقائهم فيها. أما الجنة فتُفتح أبوابها لأهلها قبل وصولهم إليها، ولما يصلون

والحكم، ١٤٢٤هـ) ج ٤ص٥١٠.

٨٨- هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، كان مفسرا نحويا معتزليا. ولد في خوارزم عام ٤٦٧هـ. كان واسع العلم، ذكيا، ماهرا في كل علم. توفي عام ٥٣٨هـ. له كتب كثيرة، منها: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، **أساس البلاغة**، وغيرها.

يُنظر: الداودي، **طبقات المفسرين**، ج ٢ص٣١٥ – ٣١٦. السيوطي، **طبقات المفسرين**، ص١٢٠ – ١٢١. الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ص١٧٢ – ١٧٣.

٨٩- الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤ص١٤٧.

إليها يجدونها بانتظارهم، مفتحة أبوابها لهم، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾[٩٠] وفي ذلك إكرام لأهل الجنة واستقبال لهم كما أننا نفتح أبواب المنزل إكراما للضيوف الأعزاء الذين نكون مشتاقين إليهم، ويأتوننا بعد انتظار طويل، ويظهر من ذلك زيادة تشريف للضيوف وإظهار شوق صاحب المنزل وانتظاره لهم.

أن أهل النار توبخهم الملائكة وتقول لهم تقريعا لهم: ألم يأتكم رسل منكم، ليزدادوا حسرة وندما على ما فرطوا في الدنيا، ويعترفون حينئذ بذنبهم ووجوب العذاب لهم بما قدمت أيديهم، ولا ينفعهم الاعتراف يومئذ ولا الندم. أما أهل الجنة فتكرمهم الملائكة، وتسلم عليهم، وترحب بهم في الجنة بكلام طيب قائلة: ادخلوا الجنة خالدين فيها لطيب أعمالكم في الدنيا، في حين أنه يقال لأهل النار ادخلوا جهنم من أبوابها، واخلدوا فيها.

أن النار بئس مثوى المتكبرين ومأواهم لا راحة فيها ولا سرور، أما الجنة المليئة بالسعادة والسرور فهي نعم أجر العاملين المؤمنين.

يندم أهل النار على ما فعلوا في الدنيا، ويتمنون الرجوع إليها، كما يطلبون التخفيف من العذاب. أما أهل الجنة فيحمدون الله ويشكرونه على نعمة الهداية في الدنيا، وعلى صدق وعد الله، والحصول على الجنة بفضل الله ورحمته في الآخرة، ولن يبغوا عنها حولا.

ومن أهم مقاصد هذه المقارنة: بيان فضيلة المؤمن على الكافر، وتوضيح منزلة المؤمن عند الله وإكرامه له وإهانته للكافر، والتشويق للجنة والتخويف من النار، وتشجيع المؤمنين الثابتين على الحق، والحث على اتباع سبيلهم، وذم الكفار والتحذير من سلوك سبيلهم، والترغيب في التقوى والتطلع إلى الجنة، والتحذير من العكس. جاء في **أيسر التفاسير** ما نصُّه: "في الآيات بيان إهانة أهل النار بسوقهم بعنف وتأنيبهم وتوبيخهم، والتنديد بالاستكبار عن عبادة الله وعباده المؤمنين المتقين له. وبيان إكرام الله لأوليائه، إذ يُحْمَلُون على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية

٩٠- سورة ص، الآية: ٥٠.

وسلاما، وإكراما واحتراما، وسلاما وأمانا من كل مكروه"[٩١].

المبحث الثالث: المقارنات القرآنية ومقاصدها العامة

أولاً: إقامة الحجة على العباد

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بغرض إقامة الحجة على العباد، ولاسيما المشركين الذين كانوا يعترفون بكون الله الخالق الرازق المحيي المميت، ومع ذلك يشركون به غيره في العبادة. فتعجَّب القرآن الكريم في كثير من الآيات من عقيدتهم الباطلة هذه التي لا وزن لها، ولا قيمة عند الله تعالى، ووبَّخهم في كثير من المواضع عليها، كما استخدم اعترافهم بهذه الأمور حجة عليهم، لعلهم يرجعون إلى التوحيد ويجتنبون الشرك الذي لا يليق أبدا بمن يعترف بهذه الأمور. ثم إن الله عز وجل ذكر أيضا في كتابه العزيز أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب لإقامة الحجة على البشر، ولئلا يبقى للناس عذر أمام الله، فقال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٩٢] فإقامة الحجة على العباد هو من أهم أهداف القرآن كله، ومن بعثة الرسول ﷺ الذي جاء به أيضا، إذ إن الله أنزل الكتاب وأرسل الرسول حتى لا يبقى للناس بعد ذلك عذر في الشرك والكفر.

فآيات القرآن الكريم ودلائله وبراهينه كلها تقيم الحجة على المشركين الذين يشركون بالله غيره، وعلى الذين لا يؤمنون به على الإطلاق، وكذلك على الناس الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بعد أن بيّن الله في كتابه كل شيء. فإن الله تعالى أنذر الناس جميعا عقوبة الذنوب والمعاصي، وقد أعذر من أنذر.

وهكذا نجد في القرآن الكريم مقارنات جاءت بقصد إقامة الحجة على العبيد، بل يصح القول بأن معظم المقارنات الواردة في القرآن الكريم سعت إلى تحقيق هذا المقصد؛ إذ إنه مقصد عام

٩١- الجزائري، **أيسر التفاسير**، ج٤ ص٥١١.

٩٢- سورة النساء، الآية: ١٦٥.

يشترك فيه عدد كبير من المقارنات القرآنية. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾(٩٣).

فجاءت هذه الآية في معرض إثبات قدرة الله تعالى المطلقة، وذكر دلائل كونه أحق بالوحدانية والعبادة، فذكر أنه يُري البرقَ ويُرسِل الصواعق، وأن الملائكة والرعد يسبحان بحمده، وأنه هو الذي يستحق الدعاء، وله يسجد من في السماوات والأرض، أما من سواه فلا يملك شيئا ولا يستجيب دعاء الداعين. وخلال بيان هذه الأمور جاءت هذه المقارنة بين الله وشركائه، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر(٩٤).

قال الشيخ الهرري(٩٥) رحمه الله: "إن الله سبحانه وتعالى لما بيّن أن كل من في السماوات والأرض خاضع لقدرته، منقاد لإرادته بالغدو والآصال، وفي كل وقت وحين، طوعا أو كرها، بحسب ما يريد، أعاد الكلام مع المشركين، ليلزمهم الحجة، ويقنعهم بالدليل، ويضيق عليهم باب الحوار، حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته، وشمول قدرته وإرادته، وأنه لا معبود سواه، ولا رب غيره"(٩٦).

نظرة تفسيرية

أمر الله تعالى نبيه أن يخاطب المشركين، ويسألهم عن رب السماوات والأرض، فقال: قل يا

٩٣- سورة الرعد، الآية: ١٦.

٩٤- راجع: سورة الرعد، الآيات: ١٢ – ١٦.

٩٥- هو أبو ياسين محمد أمين بن عبد الله الهرري، ولد عام ١٣٤٨هـ. درس العلوم الشرعية والعربية، واشتغل بالتدريس والتأليف، من كتبه: **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، هدية الأذكياء على طيبة الأسماء في توحيد الأسماء والصفات**، وغيرها. يُنظر: مقدمة حدائق الروح والريحان، ص٥ وما بعدها.

٩٦- الأمين الهرري، حدائق الروح والريحان (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ) ج ١٤ص٢٠٤ – ٢٠٥.

محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله: من خالق السماوات والأرض، ومدبرهما ومالكهما ومتولي أمورهما؟ والاستفهام تقريري، لأنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض. ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاما للحجة، إن لم يقولوه؛ لأنه لا جواب سواه، فأجاب به وأقام الحجة عليهم، لأنه من الواضح أنه ليس مما يعبدونه شيء يمكن أن يكون ربا للسماوات والأرض. ثم وبخهم على عبادة الأصنام وألزمهم الحجة على عبادتهم لها، فأمر نبيه أن يقول للمشركين: أبعد أن أقررتم بربوبيته تعالى عبدتم من دونه أصناما، واتخذتموها أنصارا لكم وتركتم الله تعالى، وهذا أمر منكر بعيد عن مقتضى العقل. ثم ذكر صفة هذه الأصنام، فبيّن أنها لا تقدر على أن تجلب لنفسها نفعا، أو أن تدفع ضرا، فكيف تتولى أمور الناس وتقدر على إيصال الخير إليهم ودفع الضر عنهم؟! وفيه أيضا دليل على ضلالهم وفساد رأيهم؛ حيث إنهم اعترفوا بكون الله الخالق، ومع ذلك آثروا عليه غيره وعبدوه من دونه. ثم ضرب لهم مثلا فقال: كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق ويهتدي السبيل، والكافر الذي لا يبصر الحق ولا يهتدي سبيلا؛ وكما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر. ويمكن أن يكون الأعمى هنا مثلا لما عبد من دون الله، والبصير مثلا لله تعالى، ويكون مراد الآية أنه لا يستوي الله البصير المطلع على أحوال البشر مع الآلهة الغافلة التي لا ترى شيئا. ثم أنكر عليهم اتخاذهم شركاء، فقال: بل أجعلوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم خلق الله وخلق شركائه؟! والمعنى: هل رأوا غير الله خلق شيئا فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره؟! والاستفهام هنا إنكاري، أي: ليس الأمر كذلك حتى يلتبس عليهم الأمر، ويظنوا أن الشركاء يستحقون العبادة مثل الله، لأنهم خلقوا كما خلق الله. بل إنهم إذا تفكروا بعقولهم وجدوا أنهم اتخذوا شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا عما يقدر عليه الخالق، والله وحده هو المنفرد بخلق كل الأشياء، والشركاء مخلوقون له أيضا لا يخلقون شيئا، وبهذا لزمتهم الحجة. ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم: إن الله خالق كل ما يشاء، مما يصح أن يكون مخلوقا، فلزم أن يعبده كل شيء. وختم الآية ببيان

أن الله هو الواحد المنفرد بالخلق، المتوحد بالربوبية واستحقاق العبادة، الغالب على كل شيء، لا يقاومه شيء[٩٧].

قال الشيخ سعيد حوى[٩٨]: "ومن كان هذا شأنه فهو الحري وحده بالطاعة والعبادة، فهو يعلم الحق ويقرره ويبينه، ويطالب به ويلزم به، ويعاقب عليه"[٩٩].

وقفة مع المقارنة

قارنت هذه الآية الكريمة بين الله تعالى والشركاء الذين يدعونهم المشركون من دون الله، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر. وجاءت هذه المقارنات كلها بأسلوب صريح مستخدمة أسلوب الاستفهام التقريري والإنكاري. فوُجِّهت للمشركين استفهاماتٌ عدة بغرض المقارنة بين الأمور المذكورة، وتوجيه العقول نحو الفروق الواقعة بينهما، وهي فروق لا تخفى على كل عاقل بصير، ومنها:

أن الله هو رب السماوات والأرض، وخالقهما ومدبرهما، ورب كل ما بينهما، وهذا ما يعترف به المشركون أنفسهم. وأما ما سواه فلا يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، فلا يستحق أن يسمى ربا.

أن الله تعالى هو القادر على إيصال النفع والضر لمن شاء من مخلوقاته، أما الشركاء الذين

٩٧- يُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ) ج ٩ص٣٠٣ – ٣٠٤. الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ج ٣ص ١٢. ثناء الله، **التفسير المظهري**، ج ٥ ص٢٢٧ – ٢٢٨. الهرري، **حدائق الروح والريحان**، ج ١٤ص٢٢٨ – ٢٣٠. سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، ج ٥ص٢٧٣٦ – ٢٧٣٧.

٩٨- هو الشيخ سعيد بن محمد ديب حوى، ولد عام ١٣٥٤هـ. من المفسرين وكبار الدعاة. درس على يد عدد من المشايخ. توفي عام ١٤٠٩هـ. من كتبه: **الأساس في التفسير**، **الأساس في اللغة**، **الأساس في السنة وفقهها**، وغيرها.
يُنظر: **الموسوعة الميسرة**، ج ١ص٩٦٣ وما بعدها. محمد خير رمضان، **تتمة الأعلام** (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٢هـ) ج ١ص٢٠٧ – ٢٠٩. محمد رمضان، **تكملة معجم المؤلفين** (بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ) ص٢١٠ – ٢١٢.

٩٩ - سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، ج٥ص٢٧٣٦ – ٢٧٣٧.

اتخذهم المشركون أولياء من دون الله لا يملكون النفع والضر لأنفسهم، فكيف يملكونها لغيرهم؟!

أن الله هو السميع البصير، إذ يرى كل شيء ويحيط به علما، أما الشركاء فهم عميان لا يرون شيئا، ومن البديهي أن الأعمى والبصير لا يستويان أبدا.

أن الله تعالى هو خالق كل شيء من المخلوقات الموجودة في الكون، أما غيره فلم يخلق شيئا حتى يشتبه الأمر على الكفار ولا يستطيعوا التمييز بين خلق الله وخلق شركائه. فكل ما يُعبد من دون الله مخلوق، ومادام الله وحده هو الخالق فهو وحده المستحق للعبادة.

لقد حُقق بهذه المقارنة الموجزة غرض إقامة الحجة على المشركين الذين يعترفون بكون الله الخالق الرازق المحيي المميت، وكونه وحده الرب المدبر لأمور الكون، ومع ذلك يشركون به غيره في العبادة. قال سعيد حوى: "قامت عليهم الحجة، إذ اتخذوا له شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا عن أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق"[١٠٠]. وإلى جانب ذلك حققت المقارنة مقاصد أخرى، منها:

- إثبات وحدانية الله تعالى، وكونه مستحقا للعبادة والطاعة وحده دون غيره.
- الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده، وطاعته وامتثال أمره، ونبذ كل ما يُعبد سواه.
- الحث على اتخاذ الله وحده وليا، لأنه هو المستحق للولاية، وولايته لا يمكن الحصول عليها إلا بالتقوى والصلاح، فهو لا يتولى إلا الصالحين.
- بيان عجز الشركاء المطلق، حيث إنهم لا يملكون شيئا من النفع والضر لأنفسهم ولا لغيرهم، كما لا يقدرون على شيء من الخلق، فكيف يجوّز عاقل عبادتهم مع الله.
- بيان أن الخالق القادر المالك هو الذي يستحق التذلل والعبادة والطاعة دون غيره.
- نفي المساواة بين الله وشركائه، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر، وبالتالي إثبات فضيلة أول هذه الأمور على آخرها.

١٠٠- سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، ج ٥ ص٢٧٣٧.

الدعوة إلى التفكر والتدبر

لقد دعت كثير من آيات القرآن الكريم إلى التدبر والتفكر فيه لأخذ العظة والعبرة منه، والاستفادة من المواعظ التي وردت فيه لأخذ الهداية منها، ثم الإيمان بالله والامتثال بأوامره؛ وذلك للحصول على مقصد صلاح الدنيا وفلاح الآخرة. ومن الآيات التي أمرت بشكل مباشر بالتدبر في آيات الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[١٠١] وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[١٠٢] ومن البديهي أن من لا يتدبر في آيات القرآن لن يتأثر بها، ومن لم يتأثر بها لا يسهل عليه التصديق بها بقلبه، والعمل بالأوامر التي جاءت بها عن ثقة ورضا، وتسليم كامل للأمر الإلهي.

وإلى جانب هذه الآيات التي تحث بشكل مباشر على التدبر في آيات القرآن، وردت في القرآن الكريم أيضا مقارنات كثيرة بغرض الدعوة إلى التدبر. بل إننا لا نخطئ إذا قلنا إن المقارنات كلها بشكل عام، وخصوصا تلك التي استُخدم فيها أسلوب ضرب المثل والتشبيه والاستعارة والاستفهام وغيرها من الأساليب البلاغية، وردت في القرآن لأجل إيقاظ العقول وتوجيهها نحو التدبر، والوصول إلى ما يريد القرآن الكريم بيانه من خلالها؛ وذلك لأنها أمور لا يمكن فهمها وإدراك ما جاء فيها من الدروس والعبر إلا بإيقاظ العقول واستخدامها في التدبر في هذه الأمور، وبالتالي الوصول إلى النتيجة التي يريد القرآن الإيصال إليها.

وكذلك فإن المقارنات التي استخدم فيها أسلوب إيجاز الحذف - وذلك بذكر طرف وحذف الطرف الآخر - مقصدها أيضا إيقاظ العقول وتنبيهها، ودعوة الإنسان إلى التفكر والتدبر؛ لمعرفة الطرف الآخر المحذوف، وفهم وجه المقارنة، والفرق بين الطرفين اللذين قرن القرآن بينهما،

١٠١- سورة محمد، الآية: ٢٤.

١٠٢- سورة النساء، الآية: ٨٢.

ثم الوصول إلى النتيجة المطلوبة، والتي هي بيان خير الأمرين لاتباعه، واجتناب كل ما سواه. ومن البديهي أن من لم يعرف الطرف الآخر لن يدرك أنه ثمة مقارنة بين شيئين. فالحذف إذًا يوقظ العقول ويشوّقها إلى معرفة المحذوف وتقديره، فيقوم الإنسان بالتفكر والتدبر في الآية القرآنية، وبالتالي يصل إلى مطلوب القرآن ومقصوده.

والأمثلة على هذه المقارنات منتشرة في القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[١٠٣] فبيّن الله تعالى فيما مضى أن وعده بقيام الساعة حق لا شك فيه؛ وعلى الإنسان أن يحذر الشيطان ويتخذه عدوا له، فلا يطيعه ولا يأذن له بأن يغرّه؛ وذلك لأنه يبغض الناس ويحاول أن يدخلهم النار. ثم وضح سبحانه أن الكفار لهم عذاب شديد، وأن المؤمنين لهم أجر ومغفرة من الله.[١٠٤] وبعد ذلك جاءت هذه المقارنة للتفرقة بين من يعمل سوءا ظنا منه أنه يعمل حسنا، والذي يميز بين الحسنة والسيئة، فيعمل الحسنة ويجتنب السيئة.

نظرة تفسيرية

بيّن الله تعالى الفرق بين صنفين من الناس، وهما المحسنون والمسيئون، وأنكر المساواة بينهما فليس من عمل سيئا كمن عمل صالحا. فقال: هل يكون الفجار الذين زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة من كفر وعصيان، فيرونها أعمالا حسنة، ويعتقدون أنهم يحسنون صنعا، كالذين لم يُزَيَّن لهم، بل كانوا على بينة وهدى من ربهم ويعلمون أنهم على الحق؟ والمراد بالذين زُيِّن لهم سوء عملهم كفار قريش وأمثالهم من الكفرة في كل زمان ومكان. ثم بيّن الحق سبحانه أن الهدى والضلال بيد الله وحده وبمشيئته سبحانه، قائلا: إن الله يضل من يشاء إضلاله، لاستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه، ويهدي من يشاء هدايته، بصرف اختياره إلى الهدى، لما يملك من العلم التام باستعداد

١٠٣- سورة فاطر، الآية: ٨.

١٠٤- راجع: الآيات: ٥ – ٧ من سورة فاطر.

النفوس للخير والشر؛ فيجب التسليم لأمر الله تعالى وقضائه. وبعد ذلك سلّى رسول الله ﷺ الذي حزن من كفر قومه وإصرارهم على الكفر بعد رؤية الآيات، فقال له: لا تغتم ولا تهلك نفسك حسرة وهما على عدم إيمانهم وثباتهم على الكفر والضلال. وجمع الحسرات للدلالة على شدة اغتمامه ﷺ على أحوالهم، وكثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتحسر والتأسف. ثم توعد الكفار بالعقاب على سوء صنيعهم قائلا: إن الله عليم بهم وبما يعملون من المنكرات والقبائح، فلا تخفى عليه خافية، وسوف يجازيهم عليها بما يستحقون. وهذا الوعيد كاف لمن أدرك حقيقته(١٠٥).

قال الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "الذي زين له السيئ دون من أساء وعلم أنه مسيء. فإن الجاهل الذي يعلم جهله، والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب إلى الله، والذي لا يعلم يصرّ على الذنوب. والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم، والمسيء الذي يرى الإساءة إحسانا له صفتا ذم: الإساءة والجهل"(١٠٦).

وقفة مع المقارنة

هذه الآية فيها مقارنة غير صريحة بين الذي زين له الشيطان عمله السيئ فرآه حسنا، وبين الذي لم يُزَيَّن له عمله السيئ، باستخدام أسلوب إيجاز الحذف؛ حيث ذُكر الطرف الأول وحُذف الطرف الآخر. قال الدكتور الزحيلي رحمه الله: "حُذف الجواب لدلالة اللفظ عليه، أي: كمن لم يزين له سوء عمله؟ ودل على المحذوف بقية الآية"(١٠٧). فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية الفرق بين المحسن والمسيء، وأنكر المساواة بين الذي يعمل سيئا ظنا منه أنه يعمل حسنا، والذي يدرك الحسنة من السيئة فلم يزين له الشيطان أعماله السيئة، بل يعرف الحسنات ويعملها ويرجو من الله الثواب

١٠٥- يُنظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦ص٢٢٤. ابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ٢ص١٧٢. أبو حيان، **البحر المحيط**، ج ٩ص١٤ – ١٥. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج ٧ص١٤٤ – ١٤٥. الزحيلي، **التفسير المنير**، ج٢٢ص٢٣١.

١٠٦- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦ص٢٢٤، بتصرف.

١٠٧- الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٢٢ص٢٢٨.

عليها. ولا شك أنهما لا يستويان. فكما لا تستوي الحسنة والسيئة كذلك لا يتساوى المحسن مع المسيء وإن ظن أنه يعمل صالحا. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾(١٠٨).

فالذي زين له الشيطان سوء عمله يعمل السيئات ويتبع أهواءه من غير علم ولا بينة، ويحسب أنه يحسن صنعا. أما المقابل له وهو المؤمن الصالح فهو على بينة وبرهان من عند ربه، لا يتبع هواه ظنا منه أنه يحسن صنعا، بل يتبع ما أنزل الله، ويطيع أوامره ولا ينخدع بالشهوات والأهواء، ولا يغرّه الشيطان ليوقعه في السيئات التي ظاهرها مزين، وباطنها يؤدي إلى معصية الله تعالى واستحقاق عقابه الأبدي. ووردت مثل هذه المقارنة أيضا في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾(١٠٩).

وبالجملة، فإن المسيء يتبع أهواءه وأمانيه بتزيين الشيطان له الهوى والشهوات التي حجبت بها النار التي يقع بها في النهاية، أما المحسن فهو على بينة وبرهان من ربه، يعرف السيئة والحسنة في حقيقة الأمر، فيتبع أوامر الله، ويتحمل التكاليف والمكاره التي حجبت بها الجنة التي تكون مصيره في نهاية الأمر.

ومن أهم مقاصد هذه المقارنة:

- إيقاظ العقول ودعوتها إلى التدبر والتفكر في الفرق بين الحسنة والسيئة والمحسن والمسيء، للتمييز بينهما، ثم اتباع طريق المحسنين الذين يحبهم الله.
- إثبات أن الخير والشر يكون بحكم الله وبحسب ما أخبر به الله، وليس بهوى الإنسان. فليس كل ما يظنه الإنسان حسنا فهو خير وحسن في حقيقة الأمر، وليس كل ما يظنه سيئا يكون كذلك في حقيقة الأمر، بل ذلك تابع لأحكام الله وأوامره. قال تعالى:

---

١٠٨ - سورة فصلت، الآية: ٣٤.

١٠٩- سورة محمد، الآية: ١٤.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[١١٠].

- إثبات فضيلة المتبع لما أنزل الله على الذي زين له سوء عمله واتبع شهواته. قال الدكتور الزحيلي: "هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن، فلا يسوّى بين من زين له الشيطان عمله السيئ فأطاعه وبين من هداه الله للخير فاتبع أوامر الله"[١١١].
- بيان سعة علم الله، وإحاطته بكل ما يصنعه البشر، والتخويف من جزائه الذي يناله البشر لا محالة، والحث على الاستعداد للقائه.

ثالثاً: إظهار الأشياء وتبيينها بذكر أضدادها

إن مقصد معظم المقارنات التي وردت في القرآن الكريم، بل كلها تقريبا هو توضيح الحقائق وتبيين الأشياء بذكر أضدادها، بل يصح القول بأن هذا هو غرض كل مقارنة أينما وردت، إذ إنه من فوائد المقارنة بشكل عام؛ وذلك لأنه بضدها تتبين الأشياء. وإظهار الأشياء وتوضيحها بذكر أضدادها أمرٌ معروف لدى الجميع؛ فمن لم يعرف الظلام لم يفهم حقيقة النور، ومن لم يذق طعم المرض لم يدرك أهمية الصحة، وهكذا يكون في الأمور كلها. ولذا كان لذكر الأضداد أهمية كبرى في توضيح الحقائق وتبيين الأشياء، ولهذا السبب ورد في القرآن الكريم ذكر لكثير من الأمور المتضادة مع بعضها البعض، بغرض توضيحها وإظهارها، حيث قرن القرآن الكريم في آيات كثيرة بين الظلمات والنور، والإيمان والكفر، والجنة والنار، والخير والشر وغيرها من الأمور المتضادة.

ولأن هذا المقصد يمكن اعتباره من الفوائد العامة للمقارنة، لذا يشترك فيه عدد كبير من المقارنات؛ وبالتالي كثرت الأمثلة عليه في القرآن الكريم. ومن هذه الأمثلة قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[١١٢] وجاءت هاتان الآيتان جوابا للقسم الوارد في سورة الشمس، إذ

١١٠- سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

١١١ - الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٢٢ص٢٣٣.

١١٢- سورة الشمس، الآيتان: ٩ – ١٠.

أقسم الله فيها بأمور متعددة، وهي: الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض، ومن بنى هذه الأمور، وهو الله جل وعلا، والنفس الإنسانية التي وُضعت فيها دواعي الخير والشر. ثم جاءت هاتان الآيتان جوابا للقسم، مشتملة على مقارنة بين المزكي لنفسه وغير المزكي لها[١١٣].

نظرة تفسيرية

هاتان الآيتان وقعتا جوابا للقسم، وقد ذكر الله فيهما جزاء ما تختاره النفس الإنسانية، كما أن فيهما تحقيقا لفلاح المؤمنين وخيبة المشركين. فذكر الله تعالى أنه قد أفلح، أي: فاز بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ونجا من كل مكروه، من زكى نفسه واختار لها ما به كمالها، ودفع الرذائل عنها؛ فهذبها ونماها وأعلاها باتباع التقوى قولا وعملا. وخسر من أضل نفسه وأغواها وأهملها وحال بينها وبين فعل الخير؛ فلم يهذبها بالطاعة والعمل الصالح، بل اختار الفجور والكفر، بعد أن ألهمه الله التمييز بين الخير والشر. والمقصود في الآية الفلاح والخيبة في الدار الآخرة[١١٤].

قال ابن عاشور رحمه الله: "وقدم الفلاح على الخيبة لمناسبة التقوى[١١٥]، وأردف بخيبة من دسى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب[١١٦] على ما هو أثر التدسية"[١١٧].

وقفة مع المقارنة

قارنت الآيتان مقارنة غير صريحة بين الذي يزكي نفسه بالإيمان والطاعات والعمل

---

١١٣ - راجع: الآيات: ١ – ١٠ من سورة الشمس.

١١٤- يُنظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج ٩ص١٦٤. الألوسي، **روح المعاني**، ج ١٥ص٣٦٠ - ٣٦١. الشوكاني، **فتح القدير** (دمشق: دار الكلم الطيب، ١٤١٤هـ) ج ٥ص٥٤٧. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠ ص٣٧٠ – ٣٧٢. الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٣٠ص٢٥٧ ، ٢٦٠.

١١٥- في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا** ﴾ سورة الشمس، الآيتان: ٧ – ٨.

١١٦- وذلك في قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ** ﴾ سورة الشمس، الآية: ١١.

١١٧- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠ ص٣٧١.

الصالح، وبين الذي يفسدها ويضلها ويغويها بالكفر والفسوق والعصيان وارتكاب المحرمات. وبيّنت الفرق بينهما، وهو بكل بساطة أن الأول ناجح فائز بالجنة، والثاني خائب خاسر، لم يظفر بالمراد، بل كان من أهل النار الذين هم الخائبون الخاسرون في حقيقة الأمر. وبذكر الضدين معا، واستخدام المقابلة اتضح الأمر للمخاطبين.

ومن أهم المقاصد التي حققتها هذه المقارنة:

- توضيح الفرق بين المؤمن الذي يهذب نفسه ويزكيها بالطاعات، والكافر الذي يفسد نفسه بالمعاصي والفجور؛ فالأول له الفلاح الأبدي والثاني له الخسران الدائم.
- الدعوة إلى الإيمان والتزكية، للظفر بالمطلوب والنجاة من المكروه يوم القيامة.
- بيان حقيقة الفلاح والخيبة، فالفلاح والخسران في الأصل ما كان في الآخرة لا ما كان مؤقتا في الدنيا زائلا.
- كشف الحقائق بذكر أضدادها، فقد تبيّن بهذه المقارنة أصل الفلاح والتزكية، كما تبيّن أصل الخيبة والخسران بذكر الضدين معا.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسولنا المصطفى المختار ﷺ، وعلى آله وصحبه الأطهار، والتابعين وتابعيهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

وبعد؛ فإن من أساليب القرآن الكريم البليغة في عرض الحقائق أسلوب المقارنة الذي أكثر القرآن الحكيم من استخدامه في سوره وآياته، إذ لا يكاد يخلو جزء من أجزاء القرآن من مقارنات بديعة. ولا شك أن هذا الأمر يدل على أهمية المقارنة في توضيح الحقائق وتبيين الأشياء، إذ يقال: "وبضدها تتبين الأشياء". والمقارنة مستخدمة أيضا في الحديث النبوي الشريف على صاحبه أفضل الصلوات وأتم التسليمات، كما أنها مستخدمة في كثير من العلوم الشرعية والتجريبية الأخرى، لفوائدها الجمة وأهميتها القصوى. ولأجل هذه الفوائد الكثيرة استخدمها القرآن الكريم أيضا،

سعيا إلى أهداف معينة تحمل فوائد عظيمة للبشر في دنياهم وأخراهم.

ومن خلال دراسة موضوع مقاصد المقارنات القرآنية، توصلت إلى نتائج مهمة، وهي:

١. لقد شغلت المقارنات حيزا كبيرا من القرآن الكريم، وهي منتشرة في ثنايا سوره وأجزائه، إذ لا يكاد يخلو جزء من أجزاء القرآن منها.

٢. إن المقارنات القرآنية نوعان: فمنها ما هو صريح، ومنها ما هو غير صريح، ولكل من الصريح وغير الصريح أساليب ومقاصد متنوعة.

٣. المقارنات القرآنية لها أساليب متنوعة، وكلها بليغة، إذ لا يقل أحدها عن الآخر في الفصاحة والبلاغة، كما أنها جميعا مُحَقِّقَة لمقاصدها التي وردت لأجلها في القرآن الكريم.

٤. إن من أساليب المقارنات الواردة في القرآن: أسلوب الاستفهام، وضرب المثل، والتشبيه والاستعارة، والطباق والمقابلة، والإطناب، ونفي المساواة بين الطرفين، وغيرها. وهذه الأساليب كلها تندرج تحت المقارنات الصريحة. ومن أساليب المقارنات غير الصريحة: أسلوب إيجاز الحذف، والربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والمقارنة باختيار صفة للطرفين، وغير ذلك.

٥. إن للمقارنات في القرآن الكريم مقاصد كثيرة تسعى إلى تحقيقها، بعضها عامة تُعتبر بمثابة الفوائد العامة للمقارنة ويشترك فيها عدد كبير من المقارنات، وأخرى خاصة يشترك فيها عدد قليل من المقارنات. ولا يمكن حصر هذه المقاصد، لأنه بالدراسة والتفكر تظهر للقارئ مقاصد كثيرة لم يُسبق إليها.

٦. إن من أهم مقاصد المقارنات في القرآن: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإصلاح عقائد البشر، وبيان رحمة الله وشفقته بعباده، وإثبات ولايته للمؤمنين، وبيان سعة علم الله وقدرته المطلقة، وإثبات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر، وإظهار الحقائق وتبيين الأشياء بذكر أضدادها، والدعوة إلى التفكر والتدبر، وإقامة الحجة على العباد، والتشويق للجنة

والتخويف من النار، وغير ذلك من الأهداف الكثيرة.

٧. لا شك أن استخدام القرآن الكريم للمقارنة يدل على أهميتها العظمى وفوائدها الكبرى في توضيح الحقائق للبشر، ولولا هذه الفوائد والحِكَم لما كثر استخدام القرآن لها.

هذا، وأدعو الله أن يجعل هذا البحث مفيدا للباحثين وطلبة العلم، كما أدعوه أن يتقبل مني هذه الدراسة المتواضعة ويجعلها في ميزان حسناتي، ويعفو عن الأخطاء والزلات التي صدرت مني فيها، وأن يجعلها من العلم الذي يُنتفع به بعدي. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

List of References

1– Al- Qurʾān ul- karīm.

2– Abdul Ghafūr Muṣṭafā, **Al-Tafsīr wa al-Mufassirūn fī Thaubihī al- Jadīd** (Dar al- Salām, 2007 AD).

3– ʿabdunnabī Nakrī, **Jamiʿ al-ʿulūm fī ʾṣṭilāḥāt al- funūn** (Dār ul-Kutub al- ʿilmiyyah, 2000 AD).

4– Abū ʿabdullāh al- Bukhārī, **Al- Jāmiʿ al- Ṣaḥīḥ** (Dar Al-Salām, 1999 AD).

5– Abū ʿabdullāh al-Qurṭubī, **Al- Jāmiʿ liʾaḥkām al- Qurʾān (** Dār al-Kutub al- Miṣriyyah, 1964 AD).

6– Abū al- Suʿūd al-ʿimādī, ʾ**irshād al-ʿaql al- Salīm**, Dāru ʾiḥyāʾ al-Turāth al- ʿarabī.

7– Abū Bakr al- Bayhaqī, **Al-ʾasmāʾ wa al- Sifāt**, Maktabaʾtu al-Sawadī, 1413 AH.

8– Abū Bakr Al-Jazāʾirī, ʾ**aysar al-tafāsīr**, Maktabatul ʿulūm, 2003 AD.

9– Abū Hayyān al- ʾandalusī, **Al- Baḥr al- Muḥīṭ fi al- tafsīr**, Dar ul-Fikr, 1420 AH.

10– ʾabū Muḥammad ʾibn ʿaṭiyyah, **Al- Muḥarrar Al- Wajīz**, Dār ul Kutub al- ʿilmiyyah, 1422 AH.

11– Abū Naṣr al- Jawharī, **Al- Ṣiḥāḥ**, Dār ul ʿilm, 1987 AD.

12– Abu Uthmān al- Jaḥiẓ, **Al- Bayān wa Al- Tabyīn**, Dār wa Maktabatul Hilāl, 1423 AH.

13– ʿādil Nuwayhiḍ, **Muʿjam al- Mufassirīn**, Muʾassasatu Nuwayhiḍ, 1988 AD.

14– Aḥmad al- ʾadnah wī, **Ṭabaqāt al Mufassirīn**, Maktabat ul ʿulūm wa al- Ḥikam, 1417 AH.

15– ʾaḥmad bābā, **Nayl al- ʾibtihāj**, Dār ul Kātib, 2000 AD.

16– ʾaḥmad ʾibn Ḥanbal, **Al- Musnad**, Muʾassasat ul Risālah, 2001 AD.

17– Aḥmad Muṣṭafā al- Marāghī**, Tafsīr ul Marāghī**, Maṭbaʿatu muṣṭafā al- bābī, 1956 AD.

18– Al- ʾanbārī, **Nuzhat ul ʾalbā**ʾ, Maktabat ul Manār, 1985 AD.

19– Al- Fayrūz ʾābādī, **Al- Qāmūs al- Muḥīṭ**, Muʾassasat ul Risālah, 2005 AD.

20– Al- Rāghib al- ʾaṣfahāni**, Al- Mufradād fī Gharībi al- Qurʾan** (Dār ul Qalam, 1412 AH).

21– Al- Rāghib al- aṣfahāni, **Tafsīr ul Rāghib** (Kulliyyatu al- daʿwah, 2001 AD).

22– Al- Samīn al- Ḥalabī, **Al- Durr ul- Maṣūn** (Dār ul- Qalam).
23– Al- Shāṭibī, Al- Muwāfaqāt, Dār ʾibn ʿaffān, 1997 AD.
24– Al- Zamakhsharī, Al- Faʾiq fī gharīb al- Ḥadith wa al- ʾathar, Dār ul Maʿrifah.
25– Al- Zamakhsharī, Al- Kashshāf, Dār ul Kitāb al- ʿarabī, 1407 AH.
26– Al- Zirkilī, Al- ʾaʿlām, Dar ul ʿilm, 2002 AD
27– ʿalāʾuddīn al- Khāzin, Lubāb al- Taʾwīl, Dār ul Kutub al- ʿilmiyyah, 1415 AH.
28– Al-Bayḍāwī, ʾanwār al- Tanzīl wa Asrār al -Taʾwīl, Dāru ʾiḥyāʾ al-Turāth al- ʿarabī, 1418 AH.
29– Al-Khalīl ʾbn ʾaḥmad al-Farāhīd, Al-ʿayn, Dār wa Maktabat ul hilāl.
30– Al-Shanqīṭī, ʾḍwāʾul bayān fī ʾīḍāḥ al- Qurʾān bil- qurʾān, Dār ul Fikr, 1995 AD.
31– ʾbn Juzayy al- Kalbī, Al- Tashīl liʿulūmi al-Tanzīl, Dār ul ʾarqam, 1416 AH.
32– Fakhruddīn al- Rāzī, Mafātīh ul Ghayb, Dār ʾiḥyaʾ al- Turāth al- ʿarabī, 1420 AH.
33– ʾibn al- Jazarī, Al- Nihāyah fi Gharīb al- Hadīth, Al- Maktabat ul- ʿilmiyyah, 1979 AD.
34– ʾibn Manzūr Al- ʾifrīqī, Lisān ul ʿarab, Dār Ṣādir, 1414 AH.
35– ʾibn Qayyim al- Jawziyyah, Al- ʾamthāl fi al- Qurʾān, Dar ul Maʿrifah, 2000 AD.
36– ʾibn Sīdah, Al- Muḥkam wa al- Muḥīṭ al- Aʿẓam, Dār ul Kutub al- ʿilmiyyah, 2000 AD.
37– Ismāʿīl ʾbn Kathīr, Tafsīr ul Qurʾān al ʿaẓīm, dār ul kutub al ʿilmiyyah, 1419 AH.
38– Jalāluddīn Al- Suyūṭī, Bughyatul wuʿāh, Al- maktabah Al- aṣriyyah.
39– Jalāluddīn al- Suyūṭī, Ṭabaqāt ul Mufassirīn, Maktabatu Wahbah, 1396 AH.
40– Maḥmūd Aḥmad Ghāzī, Muḥāḍarāti Qurʾānī, Al- Fayṣal Nāshirān, 2009 AD.
41– Muḥammad al- Harārī, Ḥadāʾq al- Rūḥ wa al-Rayḥān, Dār ṭawq al-najāh, 1421 AH.
42– Muḥammad al- Ṭāhir ʾbn ʿāshūr, Al- Taḥrīr wa al- Tanwīr, Al dār ul- Tūnisiyyah, 1984 AD.
43– Muḥammad ʿalī al- Dawūdī, Ṭabaqāt ul Mufassirīn, Dār ul Kutub al- ʿilmiyyah.
44– Muḥammad ʿalī al- Shawkānī, Fatḥ ul Qadīr, Dār ʾbn Kathīr, 1414 AH.

45– Muḥammad Khayr Ramaḍān, Takmilatu Muʿjam al- Muʾallifīn, 1997 AD.

46– Muḥammad khayr Ramaḍān, Tatimmat ul aʿlām, Daru ʾbn Ḥazm, 1422 AH.

47– Muḥammad Sayyid Ṭanṭāwī, Al- Tafsīr ul Wasīṭ, Dāru Nahḍati Miṣr, 1998 AD.

48– Muslim ʾbn al- Ḥajjāj, Al- Jāmiʿ al- Ṣaḥīḥ, Dar ul-Salām, 1998 AD.

49– Nishwān al- Yamanī, Shams ul ʿulūm, Dār ul Fikr, 1999 AD.

50– Ribḥī ʿalyān, al- Baḥth al ʿilmī Ususuhū Manāhijuhū ʾasālībuhū wa ʾijrāʾātū, Bayt ul ʾafkār al- Duwaliyyah.

51– Saʿīd Ḥawwā, Al- ʾasās fī al- Tafsīr, Dāru ul Salām, 1424 AH.

52– Scholars of Al- Azhar, Al- Muntakhab fī Tafsīr al- Qurʾān, Al-majlis al- ʾaʿlā lishshuʾūn al- ʾslāmiyyah, 1995 AD.

53– Shahāb Al-dīn al-ʾālūsī, Rūḥ ul Maʿānī, Dār ul kutub al- ʿilmiyyah, 1415 AH.

54– Sulaymān al- Ṭabarānī, Al- Muʿjam ul- Kabīr, Maktabatu ʾibn Taymiyah, 1415 AH.

55– Thanāʾullāh Pānīpatī, Al- Tafsīr al- Maẓharī, Maktabah Rushdiyyah, 1412 AH.

56– ʿumar Riḍā Kaḥḥālah, Muʿjam al- Muʾallifīn, Maktabat ul Muthannā.

57– Wahbah Al- zuḥaylī, Al- Tafsīr ul Munīr, Dār ul Fikr, 1418 AH.

58– Wahbah al- zuḥaylī, Al- Tafsīr ul Wasīṭ, Dār ul Fikr, 1422 AH.

59– Walīd al- Zubayrī and others, Al- Mawsūʿah al- Muyassarah, Majallat ul Ḥikmah, 1424 AH.